من أخلاق المؤمنين:

الصدق

لا يكذب المرء إلا من مهانته ::: أو فعلة السوء أو قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة ::: من كذبة المرء في جد وفى لعب

obeikandl.com

الصـــدق

الصدق خلق إسلامي رفيع. وفضيلة من أسمى الفضائل ترفع قدر من اتصف بها. فتجعله محل رضا الله سبحانه وتعالى ومحل ثقة الناس حتى من أعدائه. إذا تحدث اطمأنوا إلى حديثه. وإذا أخبر تأكد الناس من صدق خبره. وإذا عاهد وفى للناس بعهده. وإذا وعد اطمأن الجميع لوعده. وبحسب الصدق منزلة أن الله سبحانه وصف ذاته المقدسة بالصدق. قال تعالى{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}. ولقد كان رسول الله ﷺ صورة مشرفة للصدق. فلم يحدث أن جرب عليه أحد من الناس كذبا قط. ولقبه قومه - حتى من قبل البعثة الشريفة - بأنه الصادق الأمين. قالت زوجته الوفية الودود السيدة خديجة رضي الله عنها حين رجع إليها من غار حراء يرجف فؤاده وقال لها: لقد خشيت على نفسي. فقالت له: كلا. والله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل[1] وتكسب المعدوم - الفقير - وتقرى الضيف[2]. وتصدق الحديث...

وفى موقف مماثل مشهود من جميع أهل مكة شهد الجميع له ﷺ بالصدق. وذلك حينما أمر النبي ﷺ بالجهر بالدعوة. ونزل قول الله تعالى:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [3]. ووقف رسول الله ﷺ علي الصفا ونادي بأعلى صوته: يا بني فلان.. يا بني فلان. وسرى نداؤه فيهم مسري النور في الظلمات. وجعلوا يقولون: محمد الأمين ينادي على الصفا. فجعل من لم يستطع الخروج يرسل من يأتيه بالأخبار. ولما اجتمع الناس أشهدهم علي أنفسهم فيه فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الوادي تريد أن تغير عليكم. أكنتم مصدقي؟. فقالوا جميعا: ما جربنا عليك كذباً قط. فقال ﷺ : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني عبد المطلب. يا بني عبد مناف. يا بني زهرة. إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة. ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله».

وهكذا قامت عليهم الحجة من أنفسهم لاعترافهم صدق رسول الله ﷺ. إلا أن أبى لهب عمه - وكان رجلا بذيئا سريع الغضب - قال: تبا لك سائر هذا اليوم. ألهذا جمعتنا. فنزل قول الله تعالى:{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى

(١) الكل هو العجز عن الكسب.
(٢) تقرى الضيف أى تكرم الضيف.
(٣) سورة الحجرات. الآية رقم (٩٤).

نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}[1].

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فإننا نقول: لقد شهد أعداؤه ﷺ لـه بالصدق. فقد اجتمع أبو جهل وأخنس بن شريق يوم بدر. فقال الأخنس: يا أبا الحكم... ليس هنا أحد غيري وغيرك. اصدقني القول. أمحمد صادق أم كاذب؟. فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق وما كذب قط. ويسأله الأخنس: فلماذا لا تصدقه؟ فقال: ماذا نقول لبني هاشم إذا قالوا منا نبي وليس منكم نبي؟!... ولقد صدق الله العظيم حيث يقول "{فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}.

إنه الحسد والحقد الأسود البغيض الذي أعمى أبصارهم وبصائرهم. فقد كانوا يرون النبوة زعام مغنما دنيويا يليق بفلان أو فلان كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم في ذلك:{وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}[2]. ويرون أن العظمة هي عظمة المال والأتباع، وما دروا أن العظمة الحقة هي عظمة الروح وعظمة الخلق. وبهذا المقياس وحده كان رسول الله ﷺ أعظم عظماء الدنيا. قال تعالى:{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[3]. وقال تعالى:{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[4]... ولقد سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله فقال: قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.

ولقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه بالصدق. فقال عن نبي الله إدريس عليه السلام:{وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيـاً}[5]. وقال عن إسماعيل عليه السلام:{إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياًّ}[6]. ووصف الله عز وجل المؤمنين الأبرار بأنهم هم الصادقون - قال تعالى:{لَّيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ

(١) سورة المسد.
(٢) سورة الزخرف. الآية رقم (٣١).
(٣) سورة القلم، الأيه رقم (٤).
(٤) سورة الأنعام، الآية رقم (١٢٤).
(٥) سورة مريم، الآية رقم (٥٦).
(٦) سورة مريم، الآية رقم (٥٤).

وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.[1]

ويوم القيامة يكون الصدق نافعا لأصحابه. قال تعالى:{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}[2].

أمثلة من صدق السابقين

يروى أن أحد الصالحين أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم. فأعطته أمه أربعين دينارا هي كل ميراثه عن أبيه. وقالت له: ضع يدك في يدي وعاهدني على التزام الصدق فلا تكذب أبدا. فعاهدها على ذلك وخرج مع القافلة. وفى أثناء الطريق خرج اللصوص ونهبوا كل ما في القافلة. ورأوا ذلك الرجل رث الثياب فاستحقروا أن يكون معه شيء. ولما سألوه هل معك مال؟ قال نعم معي أربعون دينارا. فسخروا منه وظنوا أنه أبله[3] فتركوه. ورجعوا إلى كهف كان يقيم فيه كبيرهم. فلما رآهم قال لهم: أخذتم كل ما في القافلة؟ فقالوا نعم إلا رجلا سألناه عما معه فقال: معي أربعون دينارا فتركناه احتقارا لشأنه. ونظن أن به خبلا في عقله.: فقال على به. فلما حضر بين يديه قال له: هل معك شيء؟ قال: نعم معي أربعون دينارا. فقال: أين هي؟ فأخرجها وسلمها له. فقال كبير اللصوص: هل أنت مجنون يا رجل؟ ترشد عن مكان نقودك وتسلمها بنفسك واختيارك!! فقال: لما أردت الخروج من بلدي عاهدت أمي على الصدق.. فأنا لا أنقض عهدي مع أمي. فقال كبير اللصوص: لاحول ولا قوة إلا الله. أنت تخاف أن تخون عهدك لامك ونحن لا نخاف أن نخون عهدا لله! ثم أمر برد ما أخذ من القافلة وقال: أنا تائب على يديك يا رجل. فقال من معه من اللصوص: أنت كبيرنا في قطع الطريق. واليوم أنت كبيرنا فى التوبة. تبنا إلى الله جميعا. فتابوا وحسنت توبتهم ببركة الصدق.

ويروى كذلك أيضا أن هاربا لجأ إلى أحد الصالحين وكان يعمل خواصا. فقال له: أخفني عندك. فقال له: نم هنا. فنام ووضع عليه بعض الخوص. ولما جاء طالبوه وسألوا الخواص عن الهارب فقال: إنه نائم هنا. وأشار إلى حزمة الخوص. فظنوا أنه

(١) سورة البقرة، الآية رقم (١٧٧).
(٢) سورة المائدة، الآية (١١٩).
(٣) أبله اى مجنون.

يسخر منهم وانصرفوا. فتركوه وانصرفوا ببركة الصدق. وأطال الحجاج الخطبة مرة فاعترض عليه أحد الحاضرين. وهم الحجاج أن يبطش به. ولكن أهل هذا الرجل توسلوا إلى الحجاج وقالوا: إنه مختل العقل. فقال: إن اعترف بذلك تركته. ولما حضر قال له أهله قل إنك تعتريك بعض حالات لا تدرى فيها ما تقول. ولما وقف أمام الحجاج سأله: هل أنت مختل العقل؟ قال الرجل: لا. ما كنت لأكذب وأجحد نعمة الله على. فقدره الحجاج وعفا عنه ببركة الصدق.

وأراد أخو بلال رضي الله عنه أن يتزوج امرأة من قريش. فذهبا معا إلى أهل الفتاة وقال بلال: نحن من قد عرفتم. كنا عبدين فأعتقنا الله. وكنا فقيرين فأغنانا الله. وأنا أطلب إليكم فلانة لأخي. فإن تزوجوه فالحمد لله تعالى. وإن تردونا فالله أكبر. فأقبل أهل الفتاة بعضهم على بعض وقالوا: بلال من عرفتم سابقته إلى الإسلام. وعرفتم حضوره المشاهد مع رسول الله ﷺ فزوجوه. ولما انصرفا قال له أخوه: يغفر الله لك يا بلال! أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول ﷺ وتترك ما عبدا ذلك. فقال له بلال: مه! صدقت فأنكحك الصدق.

ومن هنا أمرنا رسول ﷺ بالصدق فقال: **«عليكم بالصدق. فإن الصدق يهدى إلى البر. وإن البر يهدى إلى الجنة. وما يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب. فإن الكذب يهدى إلى الفجور. وإن الفجور يهدى إلى النار. وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»** [1].

إن الرجل الصادق واثق من نفسه. واثق في ربه أنه معه ينجيه مما قد يكون في الصدق ما يضره من وجهة نظره بعكس الإنسان الكذاب فإنه جبان ضعيف الثقة في نفسه وفى ربه. فهو يخشى الناس ولا يخشى الله. ولقد قيل بحق: تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلاك فإن فيه النجاة. وتجنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فأن فيه الهلاك [2].

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) روى أبو الدنيا عن منصور بن المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ: تحرو الصدق وإن رأيتم فيه الهلاك فإن فيه النجاة.

أقسام الصدق

ويمكن تقسيم الصدق إلى ثلاثة أقسام هي صدق القلب. وصدق اللسان. وصدق الجوارح.

١ – صدق القلب:

فيتمثل في إخلاص النية لله تعالى. فلا يقصد بأعماله إلا وجه الله عز وجل. أما كذب القلب فهو أن يعمل عملا ظاهره وجه الله ولكن قلبه لا يريد ذلك. وإنما يريد متاع الحياة الدنيا ويريد الشهوة وحسن الأحدوثة بين الناس. وخير مثال على كذب القلب هم المنافقون. وقد ذكر القران الكريم قول المنافقين للرسول - ﷺ: إنهم إذا جاءوه شهدوا له بالرسالة وإذا انصرفوا نكصوا على أعقابهم وارتدوا على أدبارهم. قال تعالى:{إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد انك لرسول الله}. وهذه الجملة صادقة في ذاتها. فمحمد رسول الله ﷺ فعلا. ولكن هذه الجملة لم تكن صادرة عن قلب صادق فكذبهم الله فقال عز من قائل:{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}(١).

ويوم القيامة يؤتى بأناس لهم مكانة في الدنيا ومنهم العالم والمتصدق والشهيد ويكشف الله عما يخفونه في أنفسهم مما يعلمه الله ويجهله الناس... فيؤتى بالعالم ويسأله الله - وهو أعلم به منه: ياعبدى.. ماذا صنعت من أجلى؟ فيقول: يارب.. تعلمت العلم وعلمته الناس. ثم يقول: ابتغاء مرضاتك. فإذا كان كاذباً قال الله: كذبت - وقالت الملائكة له: كذبت إنما تعلمت ليقال عالم. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار لأن قلبه لم يكن صادقا... و يؤتى بالشهيد فيسأله الله وهو - أعلم به منه: ياعبدى: ماذا عملت من أجلى؟ فيقول: يا ربى.. قاتلت في سبيلك حتى قتلت. فإن كان كاذبا قال الله له: كذبت. وقالت الملائكة له: كذبت إنما قاتلت ليقال شجاع. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار... ويؤتى بالمتصدق فيقول: ياربى.. كنت أتصدق آناء الليل وأطراف النهار ابتغاء مرضاتك. فإن كان كاذبا قال الله: كذبت. وقالت الملائكة له: كذبت إنما تصدقت ليقا ل كريم. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار (٢).

فليكن كل منا صادق القلب مع ربه. فإن أحدا لا يتعامل بذلك مع أحد من الناس قد يعتبر بمظهره. أو بمنظره. لكنه يتعامل مع الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى وهو

---

(١) سورة المنافقون الآية رقم (١).

(٢) الحديث بنصه رواه مسلم والنسائى وحسنه الترمذى - وهو من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

العليم بذات الصدور.. ولنا أن نوازن بين شخصين نوى كل منهما أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطاه ما يتمناه أن يستعين بذلك على طاعة ربه جل جلاله... فواحد خان عهده وكذب في نيته. والآخر وفى بما وعد به وعمل بما قاله. أما الأول فهو الذي ذكره الله في قوله تعالى:{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[1].. فهذا رجل لم تصدق نيته ولم يكن قلبه صادقاً. فحينما أعطاه سؤله نكص وبخل. ومنع الزكاة التي فرضها الله وهى الحد الأدنى للصدقة. فقد كان عليه ألا يقف عند حدود الزكاة فقط. بل كان عليه أن يتصدق أكثر من الزكاة. فقد أعطاه الله من فضله ولكن قلبه كان كاذبا.

والثاني هو نبي الله سليمان عليه السلام قال:{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}[2]... فلم يغره هذا الملك. وإنما نسبه إلى ربه فقال:{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[3].

لنذكر أيضا أن أنسا بن النضر رضي الله عنه[4] حينما لم يشهد غزوة بدر وقال: والله لئن شهدت مع رسول الله ﷺ مشهدا آخر ليرن الله ما أصنع. وشهد غزوة أحد مع رسول الله ﷺ فاندفع في ميدان المعركة وهو يقول: واه لريح الجنة إني لأجد ريحها يأتي من ناحية أحد. وصار يقاتل ويتلقى الطعنات والضربات وهو ثابت في ميدان المعركة - وكأنه يتلقى قبلات الأحباب بعد طول غياب - حتى أسلم الروح إلى ربه. وصدق فى وعده مع الله. ولكن بعد أن تغيرت ملامح وجهه من كثرة ما تلقاه من الطعان و السهام. وما عرفه أحد غير أخته عرفته بشي كان في بنانه... وفيه وفى أمثاله نزل قول الله تعالى:{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}[5].

---

(١) سورة التوبة، الآيات أرقام (٧٥، ٧٦، ٧٧).
(٢) سورة ص، الآيات أرقام (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨). سورة النمل الآية رقم (٤٠).
(٣). سورة النمل الآية رقم (٤٠)
(٤) هو عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.
(٥) سورة الأحزاب الآية رقم (٢٣) - والقصة رواها البخارى ومسلم والنسائى من رواية أنس بن مالك،

صدق اللسان:

ويكون بمطابقة الكلام للواقع. فإذا كان الإنسان يخبر عن شيء فليكن الكلام مطابقاً لهذا الشيء إيجابا وسلبا. فإذا كان يخبر عن حدوثه فلا بد أن يكون قد حدث وإذا أخبره عن عدم حدوثه فليكن غير حادث.

ويظهر ذلك في صور كثيرة... فالتاجر الصدوق الذي يلتزم الصدق يحشره صدقه مع النبيين والصديقين والصالحين. فيقول النبي ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»... [1] وإذا سأله أحد النصيحة فليكن صادق وليعلم أن الدين النصيحة: فإذا كذب في تقديم المشورة والنصيحة كتب عند الله كذابا أما إذا قدم النصيحة وفق ما يعلم وما يرى كان له ثواب الصادقين حتى ولو ظهر الخير في غير ما نصح به. وحسبه أنه كان صادقا وفق علمه... وإذا دعي إلى الشهادة قال الحق. ونطق بالصدق الذي لا يضلل العدالة. وابتعد عن قول الزور الذي يعد من الكبائر. قال تعالى:{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}[2].

عن عبد الرحمن بن الحارث قال: «كنا عند النبي ﷺ فدعا بطهور – ما يتوضأ به فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه [3]. فقال النبي ﷺ: ما حملكم على ما فعلتم؟ قلنا حب الله ورسوله. فقال: إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم. وصدقوا إذا حدثتم وأحسنوا جوار من جاوركم».

روى عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يوما ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا وقالت لي: «تعالى أعطيك. فقال رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ فقالت: أعطيه تمرا. فقال لها أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة»[4]. ومما يؤثر عن البخاري في تحريه عن الصدق فيمن يأخذ عنهم الحديث أنه خرج يوما يطلب الحديث من رجل. فرآه

وفى الحديث وجد به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة رمح أو رمية سهم ومثل المشركون به - رحمه الله.

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن، وهو من رواية أبى سعيد الخدرى - والمعنى أن التاجر كثير الصدق المشهور بالأمانة تكون منزلته مع النبيين والصديقين - كأبى بكر الصديق رضى الله عنه - ومع الشهداء كذلك.

(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٥٢).

(٣) أى أنهم شربوا ما تبقى من ماء وضوء الرسول ﷺ. وهذا الحديث رواه الطبرانى وفى الحديث دلالة على مدى حب الصحابة لرسول الله وتقديرهم له وطلب البقاة من آثاره.

(٤) رواه أبوداود والبيهقى وعبد الله بن عامر مولى رسول الله ﷺ.

قد هربت فرسه وهو يشير إليها بردائه يوهمها كأن في حجره شعير فجاءته فأخذها. فقال البخاري للرجل: هل كان معك شعيرا؟ قال: لا. فقال البخاري: لا أخذ الحديث ممن يكذب على البهائم فقد يجره ذلك إلى الكذب على رسول الله ﷺ. وكانت السيدة أسماء بنت عميس[1] ممن زففن السيدة عائشة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ وقدم الرسول الكريم كوب لبن إلى عائشة فاستحيت أن تأخذه منه ﷺ فقالت النسوة: لا تردى يدي رسول الله. فأخذت وشربت وأعطى رسول الله ﷺ كوب اللبن بعد ذلك إلى النسوة. فقلن لا رغبة لنا فيه. فقال: ﷺ أتجمعن جوعا وكذبا. فقالت السيدة أسماء يا رسول الله إذا قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا تشتهيه أيكون ذلك كذبا؟ فقال رسول الله ﷺ: حتى الكُذَيْبَة تكتب كذبة[2].

صدق الجوارح:

فهو أن يعمل الإنسان عملاً لا يكون مطابقا لما في قلبه... فالعابد يكون صادقا في عبادته إذا أداها حسبما شرع الله سبحانه وتعالى متبعا سنة رسول الله ﷺ. أما أن يتعبد المتعبد كيفما اتفق فإنها تكون عبادة كاذبة وليست صادقة... والمقاتل يكون صادقاً إذا أقبل على المعركة وقاتل بشرف وإخلاص دفاعا عن دينه أو ماله أو عرضه أو وطنه. أما إذا فر من الميدان كان قتاله قتالاً كاذباً... والموظف الذي يؤدى عمله المنوط به بأمانة ويحافظ على مواعيده ولا يعطل مصالح الأمة فهذا موظف صادق في وظيفته. أما الذي يعطل مصالح الناس ويتهرب من عمله فإن عمله يكون كاذباً. وفى معنى الحديث الشريف: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم هكذا ورفع النبي ﷺ رأسه حتى سقطت قلنسوته[3]. ورجل مؤمن جيد الإيمان إذا لقى العدو كأنما يضرب وجهه بشوك الطلح[4] من الجبن أتاه سهم غرب [1] فقتله فهو في الدرجة الثانية. ورجل مؤمن خلط**

(١) السيدة أسماء بنت عميس من المهاجرات الأولى. هاجرت مع زوجها جعفر الطيار إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله ومحمدا وعوفاً. ولما استشهد زوجها يوم مؤتة تزوجها أبوبكر الصديق وولدت له محمدا. ومات أبوبكر فغسلته بنفسها وتزوجها بعد ذلك على بن أبى طالب فولدت له يحيى وعوفاً. وعاشت بعد على.. ولها فى السنن أحاديث عن رسول الله. فهى صحابية ذات سبق وفضل - رحمها الله.

(٢) الكذيبة تصغير الكذبة - أى الكذب الصغير. وهذا يعلم أنه لا يوجد شيء اسمه كذب أبيض وكذب أسود.

(٣) أى عمامته.

(٤) شوك الطلح هو نوع من الأشجار ذات شوك. والطلح تنطق بفتح الطاء والمعنى الرجل خائف من

عملاً صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة. ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة».

سؤال وإجابة

وهنا نعن لنا سؤال مؤداه: هل يكون الصدق مذموما؟ والجواب: إن الصدق إذا أحاطت به ملابسات مذمومة فإنها تجعله مذموما وذلك مثل الغيبة فلو أن إنسانا اغتاب إنسانا وذكره بما يكرهه وكان صادقا فيما قال فإن هذا الصدق بما أحاط به من سخرية يجعل هذا الصدق مذموما ولا يشفع للمغتاب أنه صادق. قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت إن كان في أخي بما أقول. ﷺ: «إن كان فيه فقد اغتبته. وإن لم يكن ما فيه فقد بهته» (٢).

ودخلت السيدة صفية أم المؤمنين على رسول الله ﷺ ولما خرجت قالت السيدة عائشة: يا رسول الله حسبك من صفية أنها هكذا! وأشارت إشارة يفهم منها أنها قصيرة. فقال لها: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته (٣).

ونسمع كثيرا بعض المغتابين فإذا قال لهم قائل: إن هذه الغيبة لا تجوز. قال: والله إني صادق فيما أقول! وما درى هذا أن الغيبة كلمة صادقة ولكن لأن المغتاب يكرهها كانت محرمة... والنميمة قد تكون بكلمة صادقة. فإذا سمع إنسان من آخر كلمة قالها في حق ثالث. فنقل هذه الكلمة من الصدق المذموم لأن ذلك يعتبر نميمة. أي نقل الكلام على جهة الإفساد بين الناس... والسعاية هي أن يسعى إنسان لدى رئيسه ويبلغه عن زميله شيئا على جهة إفساد العلاقة بين هذا الزميل ورئيسه ليحل هو محله. وقد يكون صادقا في كلامه ولكنه صدق أشر من الكذب. ورسول الله ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقا. فلنذكر ذلك ولنتأسى برسول الله ﷺ فإن كثيرا من الناس قد يترخص في الكذب إذا أراد أن يمزح. ولكن هذا ليس من شأن المؤمنين... وإذا ألقى واحد من الناس نكتة(٤) - مثلا - وقيل له: لم تقل ذلك وهذا غير صحيح؟ قال إني أمزح. وهو بهذا يخالف هدي رسول الله ﷺ حيث كان يمزح ولا يقول إلا حقا(٥).

الموت غير مقدم عليه.

(١) سهم غرب أى لا يدرى من راميه ولا من أى اتجاه جاء. وغرب تنطق بفتح الغين وسكون الراء.

(٢) أى كذبت عليه. والحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة.

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح.

(٤) كلمة نكتة كلمة دارجة علمية تطلق على الطرفة التى يقولها شخص يتندرها مع غيره.

(٥) وفى هذا قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه).

جاءته ﷺ امرأة عجوز وقالت: يا رسول الله.. ادع الله أن يدخلني الجنة فقال لها مازحا: لا يدخلها عجوز. فقامت وهي تبكي. فقال الصادق الصدوق ﷺ أخبروها أنها لا تدخل وهي عجوز. إن الله يقول:{إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ}[1].

ونختم حديثنا عن الصدق بقول الرسول ﷺ حيث يقول: «اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم. وأوفوا إذا وعدتم. وأدوا إذا ائتمنتم. واحفظوا فروجكم. وغضوا أبصاركم. وكفوا أيديكم» [2]. ويقول ﷺ: «المتشبع بما لا يعط كلابس ثوبي زورا» [3]. ومعنى الحديث والله أعلم أن الذي يتزين ويتجمل بمالا يملك ليرى أنه غنى يكون كمن يلبس ثوبين قديمين ليتظاهر بالزهد وهو ليس زاهدا ولا متقشفا. ولنعلم أن النية الصادقة يعطى صاحبها ثواب العمل الذي نراه ولو لم يعمله. قال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[4] والصدق يكون سببا في سعة الرزق قال ﷺ: «ما أملق – افتقر – تاجر صدوق» ويقول ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبينا – العيوب التي في السلعة أو الثمن – بورك لهما في بيعهما. وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما» [5]. وقال ﷺ: «حينما سئل: ما عمل الجنة؟ قال: الصدق. وسئل: وما عمل النار؟ قال الكذب.. إذا كذب العبد فجر. وإذا فجر كفر. وإذا كفر دخل النار». وسئل النبي ﷺ : «أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم. قيل أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا» [6] وقال ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذبة» [7].

ومن شرف الصدق أن الصادق يقبل قوله فيعدوه. ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله في صديقه.

لا يكذب المرء إلا من مهانته ::: أو فعلة السوء أو قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة ::: من كذبة المرء في جد وفي لعب[8].

---

(١) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨). والحديث أخرجه الترمذي في الشمائل عن الحسن رضي الله عنه.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، والحديث من رواية عبادة بن الصامت.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الحديث في الترغيب والترهيب للمنذري.
(٥) رواه البخاري.
(٦) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب. الجزء رقم (٣). الصفحة رقم (٥٩٥).
(٧) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب. من حديث سعد بن أبي وقاص.
(٨) قال آخر:
إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل لدى الناس كذابا ولو كان صادقا
فإن قال لم تُصغ له جلساؤه ::: ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

* * * * *

obeikandl.com

من أخلاق المؤمنين:

الحيـاء

عـن أبـى هريـرة رضـي الله عنـه قـال: قـال رسول الله ﷺ : «**الحياء من الإيمـان والإيمـان في الجنة والبذاء من الجفاء. والجفاء في النار**».

obeikandl.com

الحيـــاء

الحياء رقة تعترى وجه الحيي فتغيره عند فعل ما يتوقع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله. والإغضاء والتغافل عما يكرهه الإنسان بطبعه. وكان رسول الله ﷺ " أشد حياء من العذراء فى خدرها "[1] وأشد الناس إغضاء عن العورات. فكان لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس.

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «كان إذا بلغه ﷺ عن أحد شيئا يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا وكذا. ولكن يعمم فيقول: ما بال أقوام قـالوا كـذا وكذا. ينهى عنه ولا يسـمى فاعلـه». ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق. ولا يجزى بالسيئة السيئة. ولكن يعفو ويصفح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ من حيائه لم يكن يثبت بصره في وجه أحد. وأنه كان يكنى عما يضطره الكلام إليه. وتقول عائشة: «ما رأيت منه ولا رأى منى يعنى العورة». وهى امرأته وهو زوجها.

ولقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال ﷺ: أحفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك. قلت يانبى الله إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ فقال ﷺ: إن استطعت ألا يرنها أحد فلا يرنها. قلت: إذا كـان أحـدنا خاليا؟ قـال ﷺ: فـالله أحق أن يستحى منـه من النـاس. يقول النبي ﷺ: «الحياء والإيمان قرناء جميعا ، فإذا رفع أحدهما رفـع الآخـر» [2]. وورد فى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: «ما أنصفني ابـن آدم. يـدعوني فاسـتحى أن أرده. ويعصينى فلا يستحى منى». وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «دخلت على الـنبي ﷺ فوجدته يبكى. فقلت: يا رسول الله.. ما يبكيك؟! قال ﷺ: أخبرني جبريل عليـه السلام أن الله يستحى من عبد يشيب في الإسلام أن يعذبه. أفلا يستحى الشـيخ أن يذنب وشاب في الإسـلام؟!». وقد ورد أيضا في السنة النبوية المطهرة وصف الله سبحانه وتعالى بالحياء. قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حيى ستير يحب الحياء والستر. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر». وجاء أيضا: «إن الله تعالى حيى كريم يستحى إذا رفع

---

(١) حديث شريف رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى.
(٢) رواه الحاكم.

الرجل يديه أن يردهما صفرا... " وحياء الله سبحانه وتعالى ليس كحياء أحدنا. فهو عز وجل{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[1].

وجاء في القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بالحياء. قال تعالى:{وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ} [2]. ولقد نزلت هذه الآية الشريفة في مناسبة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش. فقد كانت في حجرتها وجعلت وجهها للحائط. فقد أولم[3] النبي وجعل الناس يدخلون فيأكلون ويخرجون. إلا نفرا حلا لهم الحديث في بيت رسول الله ﷺ. واستحيا الرسول الحيي أن يقول لهم قوموا. ولم يراعوا ظروف السيدة زينب وأنها لحيائها تجلس وجهها إلى الحائط. فخرج النبي ﷺ ثم دخل حتى أحسوا برغبته ﷺ في انصرافهم. فنزلت هذه الآية وفيها تأديب للمسلمين مع الرسول ﷺ بأن عليهم أن ينصرفوا إذا تناولوا طعامهم في بيت النبي. وفي القرآن الكريم كذلك وصف لبنت الشيخ الكبير الذي سقى الغنم لها ولأختها موسى عليه السلام حينما بعثها أبوها إليه ليعطيه أجر ما سقى لهما. يقول القرآن الكريم:{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}[4].

وانظر إلى روعة النظم الشريف " تمشي على استحياء ". أي أنها تمشي وعليها سيما الوقار والحشمة - وكأن الحياء طريق تمشي عليه - ثم قالت:{إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ} ولم تقل: هلم معي. أو أنا أدعوك للذهاب إلى بيتنا. ثم أعلمته أن أباها هو الذي يدعوه حتى لا يطمع فيها إذا كانت الدعوة منها... فهل تقتدي نساؤنا وبناتنا بهذه المرأة الصالحة؟ فلا تدعوا المرأة إلى بيتها إنسانا بدون إذن زوجها أو ولي أمرها. إنما عليها إن وجهت الدعوة أن توجهها باسم رجلها. وكان موسى عليه السلام على هذا المستوى الرفيع من الحياء. فقد طلب منها أن تسير وراءه لا أمامه ولا إلى جواره. ثم تدله على الطريق بأن تلقى الحصاة إلى الناحية التي توصلها إلى البيت ولم يطلب منها أن تكلمه. وبذلك استحق الوصف بأنه " القوى الأمين ". فهو قوى لأنه سقى لهما وكان غطاء البئر الذي سقى لهما منه ثقيلاً جدا فرفعه موسى عليه السلام بمفرده.. فدل هذا على قوته وهو أمين على

(١) سورة الشورى. الآية رقم (١١).
(٢) سورة الأحزاب. الآية رقم (٥٣).
(٣) الوليمة هي طعام العرس.
(٤) سورة القصص. الآية رقم (٢٥).

مروءته وحياته، وأمين على هذه الفتاة فأمرها أن تمشي خلفه حتى لا تعبث الرياح بثيابها. وألا تكلمه حتى لا يفتن بصوتها... فهل يفعل شبابنا كما فعل نبي الله موسى عليه السلام؟ وهل تفعل فتياتنا كما فعلت تلك الفتاة؟... فلو أن فتاة أرسلها أبوها إلى شاب لتبلغه دعوة أبيها لخرجت بكامل زينتها وعطرها وأناقتها. وحينئذ يخرج معها الفتى ويفتحان موضوعا يخجل منه الحياء. فلا حياء ولا خجل!!! ومن أحسن ما قيل في الحياء من الله قول الشاعر:

أعصيك تسترني ::: أنساك تذكرني
أقلوك تحبني ::: أجفوك تعليني
إذا ماقال لي ربي ::: أما استحييت تعصيني
أتخفى الذنب عن ::: وبالآثام تأتيني
فما قولي له ::: يباعدني ويقصيني

يروى أن امرأة جاءت إلى طاووس رضي الله عنه تراوده عن نفسه فلم يزل بها حتى أتى المسجد والناس مجتمعون. فقال لها: أقضى ما تريدين فادخلي هنا. فقالت: في هذا الموضع والناس ينظرون! فقال: الحياء من الله أحق. ولقد جعل النبي ﷺ الحياء شعبة من الإيمان فقال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة. والحياء شعبة من الإيمان**» [1]... وروى حسان بن عطية عن أبي أمامه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان. والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[2]. ولعل المراد من العي هنا ليس العجز عن الكلام بسبب عجز خلقي أو خلقي فذلك لا يستحق أن يمدح. وإنما المراد - والله أعلم - الصمت الاختياري الذي يلزمه الإنسان نفسه بحيث لا يتكلم فيما لا يعنيه. ولربما وصف الناس بالعي[3] فيقولون مثلا: لماذا لا يشترك معنا في الحديث؟! ذلك أن المؤمن حينما يرى الناس يخوضون في لهوأو تبكيت لا يدع لسانه يخوض مع الخائضين. فربما وصفه الناس بأنه عيي وهو في الحقيقة حيي يربأ [4]بنفسه أن ينزلق إلى هذا المنحدر.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.
(٣) أي قلة الكلام.
(٤) أي يترفع.

كما ان المراد بالبيان ليس القدرة على التعبير عما في النفس فذلك أمر من الله: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَـانَ}[1]. ولا يعقل أن يكون ذلك شعبة من شعب النفاق. وإنما المراد - والله أعلم - هو التصافح والثرثرة والتشدق والحديث أكثر مما هو مطلوب فذلك منهي عنه. قال رسول الله ﷺ: «إن أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون المتشددون» وهذه صفات من يدعى النظر والتفقه. وذلك يكون عند عدم الحياء

إن الشخص الذي لا يتصف بالحياء رجلا كان أو امرأة يأتي ما يهوى ويفعل ما يشاء. لا يصده صاد عن القبيح ولا يزجره زاجر عن المحظور... تخرج المرأة عارية تكشف ما أمر الله بستره. ولو كان عندها حياء للزمت جانب الحشمة والوقار ولبست ثياب الحياء. ومن العجب أن ترى إحداهن تزعم أن ذلك حرية شخصية! وقد قالت لي ذلك مدرسة تربية دينية - وكنت أعمل موجها للغة العربية والتربية الدينية - وكانت تضع المساحيق والأصباغ في وجهها. ولما لفت نظرها إلى أن ذلك يفقد كلامها مصداقيته إذ كيف تعلم تلميذاتها شيئا هي لا تنفذه!! قالت: هذه من الحرية الشخصية. وربما كانت هذه الكلمة نوعا من الهروب من قول الحق الذي وجهت به. وربما تبجحت واحدة أخرى فقالت: هذا هو التقدم وتلك هي المدنية، ورمت أختها المحجبة بالتخلف والرجعية. وذلك ثمرة مرة من ثمار عدم الحياء وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: " إذا لم تستح فاصنع ما شئت "[2]. ولله در من قائل:

أذا لم تَخْـــش عاقبـــة الليـــالي ::: ولم تَسْـــتحِ فاصـــنع مـــا تشـــاء
فـــلا والله مـــافى العـــيش خـــير ::: ولا الـــدنيا إذا ذهـــب الحيـــاء
يعيش المـــرء مـــا اســـتحى بخـــير ::: ويبقى العود مـــا بقـــى اللحـــاء

ولله الدر من قال أيضا:

وإنما الأمم الأخـــلاق مـــا بقيـــت ::: فإن هم ذهبت أخلاقهـــم ذهبـــوا

ولا يظن ظان أن الحديث يحرض على المعاصي عند قلة الحياء. بل هو ذم وتحقير

(١) سورة الرحمن. الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخارى.

لمن خلع جلباب الحياء. وهو في قوله تعالى:{فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[1]. فالآية تهديد لمن ترك الإيمان واختار العمى على الهدى. ويكون معنى الحديث " من لم يستح " دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه رادع. فليستحِ المرء فإن الحياء يردعه... ولنا أن نفهم فهم آخر في الحديث " إذا لم تستح فاصنع ما شئت ". أي إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بها ولم تَستَحِ منها فاصنعها. وبذلك يكون الحياء هو المقياس الصحيح للفعل أو الترك. فإذا استحييت من فعل شيء فلا تفعله وإذا لم تَستَحِ منه فاصنعه. وهذا الفهم قريب من قول رسول الله ﷺ: " ما أحببت أن تسمعه أذناك فانته. وما كرهت أن تسمعه فاتركه "[2].

أقسام الحياء

والحياء على ثلاثة أقسام: الحياء من الله سبحانه وتعالى، والحياء من الناس، والحياء من النفس...

الحياء من الله سبحانه وتعالى: فيتمثل في أن يستشعر المؤمن رقابة الله وانه لا يغيب عن الله تعالى طرفة عين وما دونها. وتلك مرتبة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ حينما جاءه جبريل عليه السلام وقال: ما الإحسان؟ فقال الرسول ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[3]. فالذين يرتكبون المعاصي لا يستحيون من الله تعالى. فإنهم كانوا يعتقدون أن الله لا يراهم فقد كفروا برب عظيم. وأن كانوا يعتقدون أن الله يراهم فقد استهانوا برب عظيم لأنهم جعلوه أهون الناظرين إليه.

روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا يا نبي الله.. إنا لنستحي والحمد لله. قال: ليس ذلك.. ولكن الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوي ولتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من

---

(١) سورة الكهف. الآية رقم (٢٩).

(٢) وقيل فى معنى الحديث إن الأمر هنا بمعنى الخبر أى من لا يستحى يصنع ما أراد. وقيل: هو أمر تهديد ومعناه إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت إن الله مجازيك عليه.

(٣) جزء من حديث صحيح رواه البخارى عن عمر بن الخطاب.

الله حق الحياء[1] ».

هذا هو الحياء من الله كما الذي لا ينطق عن الهوى. في هذه الوصية الجامعة المانعة التي لم تترك شيئا مما لا يتفق مع الحياء إلا ذكرته. ذلك أن حفظ الرأس يستدعى حفظ اللسان من الوقوع في أعراض الناس والتطاول عليهم. ومن الكذب وشهادة الزور والسخرية من الناس والهمز واللمز فى أعراضهم. ويستدعى أيضا أن يغض الإنسان بصره عن محارم الله وأن يحفظ سمعه عن سماع مالا يحل له أن يسمعه:

وسمعت حين سماع القبيح ::: كصوت اللسان عن النطق به

ثم حفظ البطن. فلا يدخل فيه شيء من الحرام. ذلك أن الرجل يقذف اللقمة الحرام في جوفه فلا يتقبل الله له صلاة أربعين يوما... وقد ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه قدم له خادمه كوب لبن. ولما شرب سأل عن مصدر هذا اللبن. فقال الخادم: كنت أتكهن[2] لقوم في الجاهلية فمررت بهم فتكهنت لهم فأعطوني هذا اللبن. وإذا بأبي بكر يضع إصبعه في فمه ويتقيأ هذا اللبن. ويقول. لو لم يخرج إلا مع نفسى لأخرجته. ثم يعتذر إلى الله عما قد يكون خالط الأمعاء ذلك لأنه يعلم أن كل جسد نبت من حرام فالنار أولى به [3].

ومن الحياء من الله كما بينت الوصية النبوية حفظ الفرج. ولقد منح الله المؤمنين بقوله:{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}[4]. وتكمل الوصية الحياء من الله بعدم الركون إلى الدنيا والاغترار بها. ولكنه يذكر الموت وما بعده من الحساب والعقاب. والميزان والصراط. والجنة والنار... ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [5].

(١) رواه الترمذى ورواه الطبرانى مرفوعا من حديث السيدة عائشة.
(٢) الكهانة نوع من السحر. وهى حرام فى الإسلام.
(٣) ومما يذكر عن أبى بكر الصديق أنه كان يطرق سبعين بابا من الحلال خشية الوقوع فى باب من الحرام.
(٤) سورة المؤمنون. الآيتان رقم (٥، ٦).
(٥) رواه الترمذى وقال حسن. وهو عن رواية شداد إن الأوس.

روى أن علقم بن علاثة قال: يا رسول الله.. عظني. فقال ﷺ: «استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك» [1]. وقال ﷺ: «الحياء نظام الإيمان. فإذا اختل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق». فشبه رسول الله ﷺ الحياء وأنه يجمع كثيرا من الفضائل بالسلك الذي يجمع حبات العقد. فإذا انقطع السلك تبددت الحبات. وإذا ظل السلك متماسكا ظلت الحبات مرتبة منظمة.

الحياء من الناس

فيكون بترك المجاهرة بالقبيح. فبعض الناس يأتي بالمعاصي جهاراً نهاراً ولا يخجل أن يراه غيره. فهو إما عاكف على لعب القمار أو النظر إلى الغاديات والرائحات. يشيع هذه بكلمة فاجرة ويستقبل الأخرى بنظرة جائعة.

ويتوعد رسول الله ﷺ هؤلاء بأنهم بعيدون عن المغفرة بقوله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين». لأنهم يكونون قدوة سيئة لغيرهم. ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. بعكس من يتصفون بالحياء. فإذا ذلت بهم القدم ووقع في لحظة ضعف في حبائل الشيطان فإنه لا يجاهر. بل يبادر بالندم والتوبة على ما فعل. قال النبي ﷺ: «من تقوى الله اتقاء الناس». وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق من الناس وقال: «لا خير فيمن لا يستحى من الناس».

قال بعض الحكماء: " من كساه الحياء ثوبه لم يبى الناس عيبه ". وقال بعضهم: " حياة الوجه في حيائه كما أن حياة الغرس في نمائه وهذا الحياء من كمال المروءة ". قال رسول الله ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» [2]. لأنه يكون فاسقا يجاهر بمعصية الله. ميت الضمير لا يسمع له صوتا ولا يحس له وخزا. يقول النبي ﷺ: «إن من مروءة الرجل: ممشاه ومدخله ومخرجه. ومجلسه وإلفه وجليسه».

الحياء من النفس

وذلك يكون بالعفة وصيانة الخلوات. فلا يقدم على عمل في السر لا يفعله في الجهر. بل يستوي عنده العملان: عمل السر وعمل الجهر. لأنه يستحى من نفسه إكراما لها.

---

(١) حديث ذكره ابن رجب فى كتاب جامع العلوم والحكم.
(٢) حديث ضعيف.

وأكرم نفســـي إنـــي إن أهنتـــها ::: وحقق لم تكرم على أحـــد بعـــدى

قال بعضهم: " ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحياؤك من غيرك. ومن عمل عملاً في السر يستحيى من عمله في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ".

ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذيء»... هؤلاء الذين يظهرون أمام الناس بالتقوى والورع والحياء. فإذا ما خلو بأنفسهم استباحوا لها ما تورعوا عنه أمام الناس ينقصهم الحياء من النفس.

قال رسول الله ﷺ فيما روته عنه السيدة عائشة: «لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صالحا. ولو كان الفحش رجلا لكان رجلا ســـيئا» [1]. وقال يحيى بن معاذ: " من استحيا من الله مطيعا استحيا الله منه مذنبا. فلا ينظر إليه وهو على تلك الحال إكراما لـه. وإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وهو يخونه فإنه يلحقه من الإطلاع عليه أمر عجيب حتى كأنه هوالجانى "... وفى بعض الأخبار أن الله يقول: " عبدي إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك؟ أنسيت الأرض ذنوبك؟ ".

الحياء وتغيير المنكر

ولكن هل من الحياء أن يرى الإنسان المنكر ولا ينهى عنه؟ أو يرى المعروف ولا يأمر به؟

الجواب: لا... فعن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: " بعث إلىَّ أبو جعفر المنصور وإلى بن طاووس فدخلنا عليه وهو على فراش قد نضدت وبين يديه أنطاع [2] قد بسطت. وأطرق عنا طويلا ثم التفت إلى ابن طاووس فقال لـه: حدثني عن أبيك. قال: نعم سمعت أبى يقول: قال رسول الله ﷺ عن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله. قال مالك: فضممت على ثيابي مخافة أن يملأني دمه[3]. ثم قال لـه: عظني يابن طاووس. فقال: نعم. أما سمعت قول الله تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْـــفَ فَعَـــلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ * وَثَمُـــودَ الَّـــذِينَ جَـــابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَـــادَ *

(١) رواه الطبرانى وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.
(٢) أنطاع جمع نطع وهو البساط من الجلد.
(٣) أى خاف أن يقتله أبو جعفر لأنه يعرض به.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَاب * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ}[1]. فقال مالك: فضممت على ثيابي مخافة أن يملأني دمه. فأمسك المنصور ساعة ثم قال: يابن طاووس.. ناولني الدواة. فأمسك بها ابن طاووس ولم يناوله إياها وهى في يده. فقال: ما يمنعك أن تناولني إياها؟ فقال: أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكا فيه. فلما سمع المنصور ذلك قال: قم عنى ن فقام وقال: ذلك ماكنا نبغي. قال الإمام مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس بعدها فضله.

نقدم هذا الموقف النبيل الشجاع لأحد علمائنا ومحدثينا في خليفة فعل ما فعل بأعدائه من بني أمية ولم يخف منهم. وكان من الممكن أن يلف عظاته في كلام عام. ولكنه ذكره بمصير الطغاة من عاد وثمود وفرعون. وكيف أن الله لبالمرصاد لكل من سار سيرتهم واقتفى أثرهم. أين هذا من فتاوى بعض من ينتسبون إلى العلم وهم يغلفونها في كلمات مبهمة؟ بل ربما كانت حسبما يراد منه أن يقول ولو خالف ما عنده!! [2].

أما علماء السلف فكانوا يستحيون من الله تعالى أن يحصى عليهم أنهم يقولون مالا يرضى الله ولا يرضى رسوله محمدا ﷺ. ومع ذلك فلم يحدث لابن طاووس شيء إنه خاف الله فأخاف الله منه هذا الجالس على فرشه وبين يديه النطع والسياف.

الحياء والاعتراف بالخطأ

وخلق الحياء لا يمنع الإنسان أن يعترف بخطئه إذا علم أنه قد أخطأ. روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب مرة فعرض بمغالاة الرجال في المهور. وأراد منهم أن يقتصدوا في ذلك. فأقلهن صداقا أكثرهن بركة. ولكن امرأة قامت من وسط النساء وقالت: يا عمر.. أيعطينا الله وتمنعها أنت يا عمر. ألم يقل الله:{وَآتَيْـتُمْ إِحْـدَاهُنَّ قِنطَاراً}[3]... فهذه المرأة لم يمنعها الحياء أن تعترض على عمر وهو من هو قدراً وجلالاً. ولم يمنع الحياء عمر أن يرجع عن رأيه ويقول: كل الناس أفقه منك يا عمر..

(١) سورة الفجر. من الآية رقم (٦) إلى الآية رقم (١٤).

(٢) لقد جاء معنى الحديث الشريف: إن الله سيعاتب المقصرين فى الدعوة إليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (لايحقرن أحدكم نفسه. قالوا: كيف يحقرن أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن عليه مقالا ثم لايقول فيه. فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا؟ قال خشية الناس. فإياى كنت أحق أن تخشى) رواه ابن ماجة ورواته من الثقات.

(٣) سورة النساء. الآية رقم (٢).

أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكان عمر وقافا عند حدود الله. وكان يخطب مرة وعليه ثوبان. وكان قد وزع على الناس أعطيتهم من الثياب ثوبا فقال: أيها الناس.. اسمعوا وأطيعوا. فقال أحد الناس: لا سمع ولا طاعة. فقال عمر: ولما يا أخا العرب؟ فقال: لأنك أمرت بإعطاء كل واحد ثوبا وأرى عليك ثوبين. فنادي عمر ابنه وقال له: أنشدك الله لمن هذا الثوب الثاني؟ فقال ابنه: إنه لي. وثوبك كان لا يكفيك لأنك رجل طويل فأعطيته لك. عندئذ قال الرجل: الآن نقل نسمع ونطع. فلم يمنع الحياء الرجل أن يقول رأيه وفيه تعريض لعمر أمام الملأ. ولم يمنع الحياء عمر كذلك أن يبين ذلك له... إنهم أناس يستحيون من الله أن يراهم ساكتين عن شيء يرون أنه يخالف ما يعلمون. فإذا علموا سمعوا وأطاعوا... إنه الحياء من الله:

يا من يرى مد البعوض جناحه ::: في ظلمة الليل البهيم الأليل [1]
ويرى نياط عروقها في نحرها ::: والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى من دونها ::: في قاع بحر زاخر متجندل[2]

الحياء... والسؤال

ولا يمنع الحياء الإنسان أن يسأل عما لا يعلم ولو كان المسئول دونه في المنزلة أو السن إذا كان عنده علم ما يسأل عنه. فليس من الحياء أن يأنف الإنسان عما يجهله ويقول مثلا: كيف أسأل ابنا من أبنائي أو من هو في سن أحفادي؟ ليس السؤال عيبا فالله سبحانه وتعالى قال:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[3]. ولكن العيب الحقيقي هو أن هذا الكبير لا يعلم وقد بلغت به السن ما علمه من هو أصغر منه من أمر دينه وكانت المرأة تأتي رسول الله ﷺ فتسأله عن أمور خاصة بالنساء. قالت السيدة عائشة ": نعم النساء نساء الأنصار. لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. فكن يسألن عن الحيض والنفاس وكيف يغتسلن ". وقالت له واحدة مرة: " هل على المرأة من غسل إذا هي احتملت؟ فقال ﷺ: نعم إذا هي رأت الماء ".

وأخيرا... روى عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه وتعالى

---

(١) الليل البهيم الاليل يعنى شديد الظلمة.

(٢) تكملة الأبيات:
أمن على بثوبة تمحو بها ::: ما كان مني في الزمان الأول

(٣) سورة النحل. الأية رقم (٤٣).

إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا. فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة. فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة. فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعونا. فإذا لم تلقه إلا رجيما نزعت منه ربقة الإسلام» [1].

* * * * *

(١) رواه ابن ماجة والربقة هى عرى فى حبل تشد به البهائم وتنطق بكسر الراء وفتحها... وفى نفس المعنى ورد حديث آخر عن رسول الله قال فيه: الحياء والإيمان قرناء جميعا. فإذا رفع أحدهما رفع الآخر - رواه الحاكم وقال حديث صحيح.

obeikandl.com

من أخلاق المؤمنين:

العدل

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}

العـدل

العدل هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم فى الحكم. ويترتب على ذلك إعطاء كل ذى حق حقه. لا ميلا مع الهوى. ولا انحيازا لقرابة أو عصبية. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}(١).

وقد أمرت الآية الكريمة المؤمنين أن يؤدوا الشهادة خالصة للحق وحده لا لقرابة ولا لعصبية. وقد كانت العصبية هى المسيطرة على أقوال الناس وأفعالهم قبل أن يستضيء الناس بنور الإسلام. وشعارهم فى ذلك انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. وليس ذلك من العدل فى شيء. فقد يكون الأخ معتدياً باغياً وحينئذ لا ينبغى أن يُعان على اعتدائه وبغيه. ومما يسير فى هذا الفلك المظلم " فلك العصبية أو القبيلة " قول القائل:

وهل أنا إلا من غزيـــة إن غـــوت ::: غويت وإن ترشد غزيـــة أرشـــد

يقول أنه تابع لقبيلته غزيه فإن سلكت طريقا كان معها وأن سلكت طريقا آخر كان معها وما هكذا يكون المسلم. إنه يدور مع الحق حيث دار ولقد ذكر رسول الله ﷺ الشعار الجاهلي ولكنه أعطاه بعد آخر يتناسب مع جلال الحق الذى ينشده فقال انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقالوا يا رسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ فقال تأخذ على يده أو تمنعه فان المسلم ليس إمعة يقول إنا مع الناس إذا أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت ولكنه يوطن نفسه إن أحسن الناس وإن أساءوا أن يجتنب إساءتهم ولذلك حارب المسلمون آباءهم وإخوانهم وعشيرتهم الكافرين قال تعالى{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.

ولذلك فإن الإسلام الذى يدعو إلى العدل يحذر من الانسياق وراء المشاعر الفطرية التى فطر الإنسان عليها من حب النفس والعمل على تجنبها أية أضرار تلحق بها وكذلك أيضا حب الدين أو الأقربين كما يحذر من الانسياق وراء الهوى. والهوى صنوف شتى.... فحب التراث هوى. وحب الأهل والأقارب هوى. ومجاملة الغنى لغناه الهوى.

---

(١) سورة النساء.

والعطف على الفقير إذا لم يكن صاحب حق هوى... وتلك كلها مداخل يدخل منها الشيطان ليحطم فى النفس الإنسانية ميزان العدل ليقيم على أنقاضه فوضى الظلم وجبروته وقهره. فمثلا قد يكون الإنسان شاهدا فى قضيه طرفها غنى وفقير. ويكون الحق مع الغنى فيأتى الشيطان بفتواه الإبليسيه ليلبس على الشاهد فيقول له: إن الغنى لا يضره إن تشهد ضده لصالح الفقير المحتاج وذلك الغنى عنده ما يغنيه. أما الفقير فهو فى حاجه إلى هذا المبلغ مثلا. وبهذا يجر الشيطان هذا الشاهد إلى هذا المستنقع البغيض... مستنقع الظلم. وقد يميل الشاهد مع الغنى مجاملة ولكن القرآن الكريم يقول{إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا} بل فى الحق يتساوى المؤمن وغير المؤمن قال تعالى{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}[1].

أمثلة من عدل المؤمنين

ومن الأمثلة التى نذكرها لتؤكد صفة العدل مثال عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه حين تولى الخلافة قال جليسة: " إذا رأيتنى ملتُ عن الحق فضع يدك فى تلابيبى ثم هزنى. ثم قل: ماذا تصنع؟ " وبدأ بتطبيق الحق على نفسه وأهل بيته فنظر إلى ما تحت يده من عقار أو مال أو متاع وبدأ برد ذلك وقال قولته المشهورة: "لا أبدأ بأولى من نفسى ". ودخل على امرأته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان فأخذ منها الثوب الذى كان قد جهزها به أبوها الخليفة وكان منسوجاً بالذهب منظوماً بالدر والياقوت وقال لها: "ردى الثوب إلى بيت المال. وإن أخذت الثوب فلست لك بصاحب. فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد". وكانت الزوجة على نفس هذا المستوى الرفيع من الطهر والنقاء وقالت: " أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك. بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لى. لا حاجة لى بالثوب فخذه إلى بيت المال ".

هذا موقف عمر بن عبد العزيز من ثوب امرأته وكيف أنه قام برده إلى بيت المال كما رد ما كان تحت يده من مال أو عقار. وله موقف آخر حيث دخلت عليه بناته فى ليله عيد وطلبن منه ثياب العيد الجديدة - ومثلهن مثل بنات المسلمين - ولكنه يعتذر إليهن بأنه لا يملك ثمن هذه الثياب ولا يستطيع إلى ذلك سبيلاً. ويطلب من خازن بيت

(١) - سورة المائدة. الآية رقم (٨).

مال المسلمين أجر شهر مقدماً ليشترى لبناته ثياب العيد - كما نفعل نحن الآن حينما نقترض بضمان المرتب مثلاً - ولكن خازن بيت المال يقول " أو ما تملك حياتك يا أمير المؤمنين إلى الشهر القادم ". وكأنى بأمير المؤمنين يجهش بالبكاء ويعتذر إلى بناته. وانظر إلى أن الله تبارك وتعالى كيف إذا وفق عبداً لطاعته أن يهيئ له بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. فلو أن خازن المال غير هذا لفتح الباب على مصراعيه أمام رغبات الخليفة وزين له أن يأخذ ما يشاء... وهكذا الحاكم المسلم الذى يرى الله سبحانه تعالى رغبة منه فى إقامة العدل ونشره والقضاء على الظلم وشره. وفيه يقول القائل:

أليس من العجائب أن مثلي ::: يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ::: وما من ذلك شيء في يده

نعم كان الخراج يدفع باسم أمير المؤمنين. وكانت الزكاة تأتى إلى أمير المؤمنين. وكانت الجزية تفرض باسم أمير المؤمنين. وكذلك الغنائم والأنفال... ولكنه لعدله لا يستطيع أن يأخذ من ذلك كله مرتب شهر مقدم ليشترى لبناته ثياب العيد. وكان بعض الخلفاء قبله يفعلون ويفعلون. ويهبون ويعطون. ويصرفون ويسرفون.

هل ترى هذا النموذج الفذ إلا ابناً من أبناء المسلمين. قيد نفسه ورغباته وشهواته بقيود العدل التى لا تحابى ولا تجامل. وما أحوج الأمة الإسلامية فى شرق الدنيا وغربها إلى هذا النموذج العادل. فلا نرى أبناء ملوك المسلمين ورؤسائهم وأمرائهم يقيمون الحفلات الحمراء و السوداء. ويقطنون الضياع و العقارات. وإذا غضب الله على قوم رزقهم من حرام. وإذا اشتد غضبه عليهم أكثر لهم منه. وصدق الله إذ يقول:{سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} (٢).

ولنتحدث عن جده العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكيف كان حاله مع أولاده. دخل السوق مرة فوجد إبلاً سماناً فسأل عن صاحبها فقيل له: إنه ابنك عبد الله ابن عمر. فأخذ نصف أرباحها وضمه إلى بيت المال. وفى رواية أنه أمر ابنه أن يبيع هذه الإبل وأن يأخذ رأس ماله فقط وأن يرد ما زاد عن ذلك إلى بيت مال المسلمين؛ لأنه خاف أن يكون ابنه قد أرعاها فى خير مراعى المسلمين وتخلى عنها الناس له لأنه ابن أمير المؤمنين. وقال له لم تصل إبلك إلى حالتها إلا أن الناس حين يرونها يقولون ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين ويربوا ربحك ".

ويدخل على ابنه مرة فيجده وأهله يأكلون اللحم - وكان فى المسلمين مجاعة - فيصرخ فيه: "كيف تأكل ما لا يأكله سائر المسلمين " و يحاوره ابنه فيقول: " إنه تاجر وأنه يربح و يؤدى زكاة ماله فما باله لايتمتع بهذا الحلال " ولكن عمر يقول له: إنك ابن الخليفة وعليك أن تعيش كما يعيش سائر المسلمين. وأن تتحمل ما يتحمله سائرهم وأن تعطى فوق ما هو مطلوب منك. فإن فى المال حقاً سوى الزكاة ". ويذهب إلى الشام ليتسلم مفاتيح بيت المقدس ويذهب معه خادمه ومعهما بعير واحد ويتقاسمان الركوب عليه... يا لجلال الإسلام ويا لعظمة الحاكم المسلم حينما يقود بعيراً يركب عليه خادمه وتأتى نوبة الخادم أن يركب وهما على أبواب المدينة التى يذهبان إليها ويدخل عمر ماشياً آخذاً بزمام البعير والخادم راكب. وعمر صاحب الجيوش المظفرة التى تنتصر هنا وهناك وأمام زحفها تتهاوى التيجان. وتهتز العروش. وتتغير خرائط الدول. ومع كل هذا يعدل بينه وبين خادمه فى الركوب على البعير... وهل عمر إلا ابن الإسلام الذى يأمر بالعدل ولو كان هذا الحكم على النفس أو الوالدين أو الأقربين. وهل عمر إلى تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ الذى قال لأسامة بن زيد وهو الحب ابن الحب حينما جاء يشفع فى حد من حدود الله يقام على امرأة سرقت فيقول له: " يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد "[1]. لقد ولدت الإنسانية فى ظلال الإسلام لأنها عرفت الحق والعدل نظرياً من كتاب الله وعرفته علمياً من سيرة الرسول وسيرة أتباعه وصحابته وتلاميذه من بعده. ويوم أن يتطابق القول والعمل وأن تتحول النظرية إلى تطبيق ويوم أن يكتبُ لها النجاح ينتصر المسلمون ويكون الفوز. ولكم سمعنا ألف هاتف وهاتف يهتفون للعدل والطهارة. وتردد أجهزة الإعلام ذلك ولكن هذا الهتاف لا يهز الضمائر ولا يفرض نفسه على القلوب فليس المهم الكلام ولكن المهم مَن وراء الكلام. لقد قرأت وسمعت عن حاكم من حكام الدول النامية - وإن شئت فقل المتخلفة - أنه حينما عزله شعبه وخرج من بلاده وكانت أمواله فى بنوك أجنبية أكثر من مال أمته كلهم بما فى ذلك الدولة نفسها وتترك زوجته عشرات الآلاف من أزواج الأحذية وأدوات التجميل وما أعف عن ذكره وأربأ بقلمى عن ذكر مخازيه... وابن الإسلام عمر بن عبد العزيز لا يجد لبناته ثمن ملابس العيد!! ألم أقل إن

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها.

الإنسانية ولدت حينما جاء الإسلام. وعرفت الحق والعدل حينما عرفت الإسلام. وهل كان ممكن أن يقول عمر بن الخطاب وهو الشريف القرشي عن بلال وهو العبد الحبشي: إنه سيدنا؟ وهل كان ممكن أن نسمع عمر بن الخطاب يقود البعير لخادمه وهو يركب... هذا هو الإسلام الذى يريد له العلمانيون أن يكون داخل جدران المساجد وتحت قبابها وفى تجاويف محاربها. وعلى أن يترك هذا الإسلام عند الخروج من عتبات المساجد. إن الذين يريدون ذلك ليسو مؤمنين وليسوا وطنيين وإن أوسمة الوطنية منهم لبعيدة.

أين - لولا الإسلام - من ينصف رجلاً عادياً من أهل مصر من ابن عمرو بن العاص. حينما ضرب المصرى وقد كان يسابقان بين فرسيهما. ولما سبقت فرس المصرى ضربه ابن عمر وقال له: خذها وأنا ابن الأكرمين. ولثقة المصرى فى عدل عمر يذهب من مصر إلى المدينة ليعرض شاكيته على أمير المؤمنين عمر. ويرسل عمر إلى عمرو وابنه ويوقفهما مع المصرى موقف الخصومة. وحينما يتبين له أن الشكوى حق يعطى الدرة للمصرى ويقول له: اضرب ابن الأكرمين. وحينما ينتصف المصرى لنفسه ويقول له عمر اجعلها على صلعة عمرو. ولكن الرجل يقول: لقد ضربت من ضربني. ثم يقول عمر لعمرو: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار؟!

وكان جبلة بن الأبهم قد دخل الإسلام بعد أن كان نصرانياً وجاء لأداء فريضة الحج. وفى أثناء الطواف داس أعرابي على إزار جبلة فألتفت جبلة إلى الأعرابي وضربه على أنفه لأنه داس على أزاره. وذهب الأعرابى وشكا جبلة إلى عمر أمير المؤمنين. وأمر عمر بإحضار جبلة وتأكد لديه صدق الشكوى. فطلب من الأمير جبلة أن يُمكن هذا الأعرابى من القصاص. ولكن هذا الأمير فزع من ذلك فقال: يا أمير المؤمنين. وكيف يقتص منى وأنا أمير وهو من السوقة؟! فقال عمر: لقد سوى الإسلام بينكما. وطلب الأمير أن يعطيه فرصة إلى الغد فأمهله. ولكن جبلة فرّ تحت ستار الليل وعاد إلى النصرانية.

يقول المستشرقون إن عدل عمر عدل الموازين التي لا تفرق بين الجوهر وبين غيره. كان على عمر أن يسترضى الأعرابى ويبقي على جبلة وعلى رعيته فى الإسلام. ونقول: إن الإسلام لم يخسر شيئاً بتنصر هؤلاء فهم ليسو مسلمين. ولو كانوا مسلمين

حقاً لخضع جبلة للقصاص وهو أمر نادى به القرآن الكريم حينما قال:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[1]. ويقول فى آية أخرى:{وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2]. إن الإسلام كسب مبدأ العدل فى ذاته. وكسب ثقة الضعفاء الذين دخلوا فيه وهم آمنون من أن يظلمهم الكبار. أين - لولا الإسلام - من ينصف امرأة عادية من ابنه وهو خليفة المسلمين وأميرهم... حدث أن الخليفة المأمون كان يجلس يوماً للمظالم فكان آخر من تقدم إليه امرأة على هيئة السفر فى ثياب رثة. فوقفت بين يديه وسألها عن حاجتها فقالت: إن لى خصماً ظلمنى فى ضيعة لى. فسألها من هذا الخصم؟ فأشارت إلى العباس ابنه هذا هو ولم يتردد المأمون لحظة فقد قال لمن معه: خذ بيده وأوقفه معها موقف الخصومة. وجعلت المرأة تتكلم وصوتها يعلوا على صوته فقال لها بعض الحاضرين: يا أمه الله.. إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير. فقال الأمير دعها فإن الحق أنطقها وأخرسه. إن لصاحب الحق مقالاً. ثم قضى لها برد ضيعتها وأمر لها بنفقة وأن تعفى ضيعتها من الخراج.

إن دائرة العدل فى الإسلام ليست مغلقة على من يشاركونا فى الدين أو الجنس. ولكنها منفتحة تشمل الناس جميعاً. قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[3]" فأنت تجد أن كلمة " الناس " كلمة جامعة تشمل بنى البشر جميعاً. وأن علينا أن نحكم بالعدل لأى صاحب حق يطالب به مهما كان دينه أو جنسه.

نعلم جميعاً. أن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر بأمر من الخليفة العادل عمر بن الخطاب. وكان من دأب المسلمين أن يبنوا مسجداً فى أى بلد يفتحونها ليكون مقراً لمصالحهم ولأمر شوراهم واجتماعاتهم. وأقام عمرو بن العاص المسجد فى المكان الذى يعرف الأن بمسجد عمرو بن العاص. وكانت إلى جوار المسجد دار صغيرة أراد عمرو أن يضم هذه الدار إلى المسجد وأن يعوض هذه المرأة صاحبة الدار عن دارها. ولكنها رفضت وتمسكت بدارها وذهبت إلى عمر بن الخطاب تشكو عمرواً فكتب رسالة إلى

(١) سورة المائدة. الآية رقم (٤٥).
(٢) سورة البقرة. الآية رقم (١٧٩).
(٣) سورة النساء الآية رقم (٥٨).

عمرو يقول لـه فيها: " نحن المسلمين أحق بالعدل من كسرى أنو شروان. أعد للمرأة دارها ".

وعمر يشير إلى قصة حدثت أيام كسرى ملك الفرس وهى أنـه حينما أراد أن يبنى الإيوان "مقر الحكم" كان إلى جدار الإيوان دويرة صغيرة. وأراد المشرفون على بناء الإيوان أن يضحوا بهذه الدويرة ليستقيم الإيوان ويعتدل. ولكن صاحبتها تمسكت بها ورفضت أن تتركها ولو بملئها ذهباً. وأمر كسرى بعدم ضم الدويرة. فصار الناس يعجبون من الإيوان وحسن بنائه ويقولون ما أحسن البناء لولا هذا الاعوجاج عند هذه الدويرة. وكان كسرى يقول هذا الاعوجاج هو الذى ضمن لنا الملك يشير إلى الحكمة التى تقول: " إن العدل أساس الملك ". ولقد بلغ العدل أقصى ما يمكن أن يبلغه فى ظلال الحكم الإسلامي حيث عرضت قضية طرفها أمير المؤمنين على بن أبى طالب والطرف الآخر يهودى ثم يحكم القاضى لليهودى مع احتمال الكذب فى كلامه على أمير المؤمنين على بن أبى طالب المُبشر بالجنة والذى لا شك فى صدقه. وصدق الشهود الذين استشهد بهم...

ونذكر هذه القصة لأن شأنها عجب. رأى على بن أبى طالب درعه التى افتقدها مع يهودى. فقال لـه: هذه الدرع درعى. ولكن اليهودى قال: بل الدرع درعى يا أمير المؤمنين. فاختصما إلى القاضى. ووقفا - أمير المؤمنين واليهودى - أمام القاضى وطلب القاضى من على بن أبى طالب البينة باعتباره المدعى. فقال على: يشهد بذلك أبنائي الحسن والحسين وخادمى قنبر. ولكن القاضى يرفض هذه الشهادة - لأن شهادة الابن لا تقبل لأبيه. وكذلك الخادم لا تقبل شهادته لمخدومه - وقال القاضى: هل معك شهود غير هؤلاء. يقول الإمام على: لا. فطلب القاضى من اليهودى أن يحلف فحلف كذباً أن الدرع درعه. وحكم القاضى لصالح اليهودى. فأخذها اليهودى وانصرف. ولكن ضميره قد استيقظ - أو قل أراد الله الخير لهذا اليهودى فأيقظ ضميره - وقال أمير المؤمنين يخاصمنى إلى قاضيه والقاضى يحكم لى عليه. أشهد أن هذه الأحكام أحكام أنبياء. وأنا أشهد أن لا الله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين لقطها يوم صفين. فقال لـه الإمام على: أما وقد أسلمت فهى لك. ونقول: هل القاضى عنده ذرة من الشك فى صدق الإمام أو صدق الحسن والحسين وقنبر؟ والجواب: لا. ولكن القاضى لا يُحكّم علمه. فلو علم القاضى شيئاً ما فإنه لا يجوز أن يحكم به إذا لم يوجد شهود.

والقاضى طبق النصوص الإسلامية ومنها البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. ومنها أن شهادة الابن لا تقبل إذا كانت لصالح أبيه وكذلك الخادم.

يتحدث الفقهاء الدستورين فيقولون: إن مفاخر العصر الحديث استقلال القضاء. بمعنى أنه لا تتدخل السلطة التنفيذية فى شؤون العدل وعمل القاضى. وأن يستغنى عن الناس فى حياته الخاصة فلا يشتغل بحاجاته فى تحقيق العدل؛ ولذلك يجعلون للقضاة كادراً خاصاً بهم يضمن لهم الحياة الكريمة. ويحسبون أن ذلك من مفاخر هذا العصر. ونقول: لقد سبق الإسلام م ذلك بكثير. وارتقى بالقضاة وأعمالهم إلى أعلى درجة من الرقى والاستقلال. فكان القضاة المسلمون عبر كل العصور يحكمون بالعدل الذى يرونه ويسوون بين الناس جميعاً أياً كانت درجاتهم ومنازلهم تطبيقاً للآية الكريمة " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ومما لا جدال فيه أن القضاء كان وما يزال وسيظل مقياساً للشعوب فى تقدمها ورقيها أو تأخرها وانحطاطها. لأنه يؤمن الفرد على مستقبله فيقبل على مجالات العمل مبدعاً منتجاً. بعكس ما إذا فشا الظلم فى أمة من الأمم. فإن الفرد يصاب بالإحباط حينما يرى أن من بعده يسبقه لأنه نسيب أو قريب أو حسيب. وسوف أسوق هذه القصة لأحد القضاة المسلمين وكيف كانوا لا يخشون أحداً إلا الله. فجاءت أحكامهم قاطعة كالسيف مضيئة كالصبح. وخضع لها من كان يتربع على قمة السلطة التنفيذية. وهذه القصة ذكرها صاحب كتاب العقد الفريد. قال: جاءت امرأة إلى القاضى شُريك قاضى الكوفة وهو فى مجلس الحكم. ثم قالت: أنا بالله ثم بالقاضى. فقال لها: من ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين. فقال لها: كيف ظلمك؟ قالت كان لى بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبى وقاسمت أخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطاً. وجعلت فيه رجلاً فارسياً يقوم على حفظ البستان ورعايته. واشترى الأمير من أخوتى وأراد أن يشترى منى فرفضت. فبعث غلمانه فهدموا الحائط واختلط نخلى بنخله وطرد الرجل الفارسى. وأرسل القاضى رسالة إلى الأمير ليحضر مجلس الحكم. فأخذته العزة بالإثم وأبى أن يحضر وبعث رسالة مع رئيس حرسه إلى القاضى يقول فيها ما رأيت أعجب من أمرك! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها - أخذتها - علىّ. فما كان من القاضى إلا أن أمر حاجبه بوضع رئيس الحرس فى السجن لأنه أعان ظالماً. وعلم الأمير موسى بما حدث لرئيس حرسه فبعث حاجبه الخاص إلى القاضى لنفس الغرض فسجنه القاضى أيضاً. فبعث جماعة من وجهاء البلد فحبسهم

القاضى كذلك. ولم يجد الأمير بداً من أن يذهب بنفسه إلى السجن وفتحه بالقوة إطلاق سراح المسجونين. فجمع القاضي أوراقه وهو يقول: والله ما طلبنا هذا الأمير بينهم ولكنهم أكرهونا عليه وضمنوا لنا فيه الإعزاز - الاستقلال - إذا تقلدناه. وركب دابته وخرج من البلد يريد الذهاب إلى الخليفة فى بغداد. وعلم الأمير موسى بالأمر وهو يعلم مسبقاً أن الخليفة سوف ينصر القاضي واعتذر إليه وقال إنما أحذننى أنك حبست من أرسلت إليك! الرسول لا يُحبس. فقال القاضي: بل أحبسه لأنه أعان ظالماً على ظلمه. وأبى أن يرجع القاضي حتى يعود جميع الذين أطلقهم الأمير إلى السجن. ولم يجد الأمير بداً من إرجاعهم إلى السجن. وجلس الأمير والمرأة أمام القاضي وتعهد ببناء الحائط فوراً كما كان. وهنا قال القاضي للمرأة: ألك حاجة بعد ذلك قالت: لا. وبارك الله لك وجزاك خيراً... ثم انظر إلى أدب القاضي بعد ذلك. فبعد أن انصرفت المرأة قام من مجلسه وأخذ بيد الأمير وأجلسه فيه وقال له السلام عليك أيها الأمير. أتأمر بشيء؟ فقال الأمير وأي شيء آمُر به بعد أن فعلت ما فعلت؟ فقال القاضي: يا أمير إن ما فعلت هو حق الشرع وما قلته الآن: حق الأدب، وأنا أعطيت كل ذي حق حقه. فقام الأمير وهو يردد " من عظّم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه ".

وما أحلى الحديث وما أعذبه عن قضاة الإسلام ونزهاتهم وحكمهم بالحق... يروى أنه وقع خلاف بين الخليفة العباسي المنصور وبين امرأته. وارتضيا الإمام أبا حنيفة حكماً فيما شجر بينهما من خلاف. واستمع الإمام إلى كل منهما فرأى الحق بجانب الزوجة قام يتردد فى الوقوف إلى جانبها ضد الخليفة. فلما انصرف الإمام أرسلت إليه الزوجة بعض الهدايا فردها الإمام مع حاملها وقال له: أقرئها منى السلام وقل لها: إنما حكمت حكمي قياماً بحق الدين ولم أرد بذلك تقرباً إلى أحد ولا التمست به الدنيا... وهكذا كان قضاة الإسلام فى أحكامهم حسبما تعلموها من الإسلام.

كما تعلموا أن الله تبارك وتعالى من أسمائه العدل. وأنه سبحانه وتعالى يمسك بيده موازين العدل ويقتص من كل ظالم لكل مظلوم حتى لا يفلت أحد بجريمته... يُروى أن موسى عليه السلام قال: " يارب أرني عدلك فى عبادك. فقال: يا موسى إنك لا تستطيع أن ترى ذلك.: فقال يارب إذا أعنتني استطعت.: قال اذهب إلى العين - البئر - واختف وراع شجرة هناك وانظر عدلي فى عبادي. فذهب واختفى وراء الشجرة فجاء فارس نزل من على فرسه وحل حزاماً كان فى وسطه ونزل إلى البئر وقضى حاجته من الماء

فشرب وتوضأ. ثم خرج وركب فرسه وانطلق وترك الحزام وجاء غلام صغير أخذ الحزام وأنصرف. ثم جاء رجل مكفوف البصر فتحسس طريقه إلى البئر وشرب وتوضأ ثم خرج. وهنا تذكر الفارس أنه نسى الحزام فعاد مسرعاً فرأى الرجل الضرير فقال له: هات الحزام الذى أخذته. فقال له أنا يا سيدي لم آخذ شيئاً وأنا ضرير كما ترى. فقال له: بل أنت الذى أخذته وإن لم تعطه لى قتلتك. ولما لم يأخذ الفارس الحزام فقد قتل الأعمى. وهنا قال موسى أرني العدل فيما رأيت فهذا الأعمى قتل ظلماً. وهذا الغلام أخذ ما ليس حقه. والفارس ضاعت أمواله. وشرح الله عز وجل لموسى هذا العدل الذى أجراه الله بين عباده: أما الفارس فكان قد غصب والد هذا الغلام مبلغاً من المال يساوى المبلغ الذى تركه فى الحزام وأخذه الطفل فهذا عدل. وأما الرجل الضرير فقد قتل والد هذا الفارس فيكون قد قُتل قصاصاً فهذا عدل[1].

أقسام العدل

وقد يقول قائل ومالي وللعدل. وللعدل وزارة تحمل اسمه وتعمل على حمايته ونشره. وله قضاة يمسكون بأيديهم موازينه أن تختل وهم مسؤولون عن ذلك... وأقول بل أنت مطالب بالعدل مع ربك. ومطالب بالعدل مع نفسك. ومطالب بالعدل مع غيرك - **فالعدل ثلاثة أقسام:**

١ - العدل مع الله. ٢ - العدل مع النفس. ٣ - العدل مع الغير.

أولاً العدل مع الله: قلنا فى تعريف العدل أنه إعطاء كل ذي حق حقه. وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به كما ورد ذلك فى معنى حديث رسول الله ﷺ حيث سأل أحد أصحابه فقال: «**أتدرى ما حق الله على عباده؟ فقال: الله ورسوله أعلم! فقال رسول الله: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**» ومن ثم فعبادة غير الله ظلم لله؛ لأن فاعل ذلك لا يكون قد أعطى الله حقه. فالله مستحق للعبادة باعتباره الخالق والرزاق وهو الذى سخر هذا الكون كله من مجرى أفلاكه إلى مسبح أسماكه.

أليس عجباً أن يصنع معي أحد الناس معروفاً فأظل ألهج بشكره والثناء عليه. ويسخر الله لى الليل والنهار. والشمس والقمر. والبحار والأنهار. ثم أنسى ذلك وأعبد غيره؟!

---

(١) القصة مذكورة في كتب الإسرائيليات، غير أن معناها سليم لا بأس به.

قال تعالى فى الحديث القدسي: «إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر سواى. خيري إلى العباد نازل. وشرهم إلىّ صاعد» بل إن الله أجلّ أن يُعبد حتى لو لم يخلق جنة أو ناراً. وفى الحديث القدسي: «أفلو لم أخلق جنة ولا ناراً أفلست أهلا لأن أتقى... بلى يا رب أنت أهل التقوى وأهل المغفرة».

ولقد سُئل النبي: «أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله نداً وقد خلقك» ومن هنا فإن الشرك هو أعظم الذنوب على الإطلاق لأنه الذنب الذى لا يُغفر. قال تعالى{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [1].

ومن وصايا لقمان لأبنه:{يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[2] وقال تعالى{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [3]... قال عطاء بن دينار: " الحمد لله الذى قال: " والكافرون هم الظالمون " ولم يقل الظالمون هم الكافرون:. والفرق بين معنى الآية ومعنى الجملة التى قالها عطاء أن الآية تقصر الظلم على الكافرون - فالكافرون وحدهم هم الظالمون - أما الجملة فمعناها أنها تصف الظالمين بالكفر. ومن منا لم يظلم نفسه؟

وإذا كان الله يعاملك بالعدل على سيئاتك فإنه يعاملك بالفضل على حسناتك. فلا أقل من أن تعامله بالعدل فى عبادته مختصة بالعبادة لله وحده. وإذا كان الله قد عصمنا من الشرك الأكبر وهو عبادة غير الله. فلا أقل من أن نجاهد الهوى والشيطان والشهوة والسمعة وحب ثناء الناس. فالشرك أخف من دبيب النمل على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء. ولتعلم أن عبادتك كلها لا تساوى نعمة واحدة من نعم الله عليك. وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» [4].

ويُحكى أن عبداً صالحاً توفاه الله إليه فقال الله لملائكته: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. فقال العبد: بل أدخل الجنة بعملي. فقال الله زنوا أعمال عبدي التى عملها وزنوا نعمى التى أنعمت بها عليه. فوزنوا أعماله فإذا هى لا توازى نعمة من نعم الله.

---

(١) - سورة النساء. الآية رقم (١١٦).
(٢) - سورة لقمان. الآية رقم (١٣).
(٣) - سورة البقرة. الآية رقم (٢٥٤).
(٤) حديث صحيح.

فقال الله: أدخلوا عبدي النار. فقال العبد أدخل الجنة برحمتك.

وعبادة الله تعالى وحده هى الهدف الذى من أجله خلقنا. قال تعالى{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ}(١) واقتصرت الآية الكريمة على ذكر الإنس والجن ولم تذكر الملائكة لأن الملائكة مفطورون على طاعة الله لا اختيار لهم فى ذلك أما الإنس والجن لهم اختيارات فى عباداتهم ثم يسألون عن هذه الاختيارات فى ضوء الرسالات التى نزلت لهم على ألسنة رسلهم.

ولقد شرف الله أنبياته بالعبودية. فقال عن رسول الله{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حولـه لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَـا إِنَّـهُ هُـوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ}(٢) وقال{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَـل لـه عِوَجاً}(٣)... وقال رسول الله ﷺ عن نفسه: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. وأشرب كما يشـرب العبـد» وقال عيسى عليه السلام عن نفسه - كما ذكر القرآن الكريم - قال{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكـاً أَيْـنَ مَـا كُنـتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً}(٤) وتجد أن عيسى عليه السلام أثبت فى هذه الآية عبوديته لله ونفى عن نفسه أن يكون شريكاً لله. ومع ذلك قالوا عنه إنه ابن إله أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ثم نفى التهمة بعد ذلك عن والدته فقال{وَبَـراً بِوَالِدَتِي} وبذلك يكون قد قدم الأهم وهو وحدانية الله تعالى على المهم وهو نفى التهمة عن أمه. فقد اتهمت فى عرضها كما قال تعالى{وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيمـاً}(٥) وشرف الله الملائكة بأنهم عباد فقال تعالى عنهم{بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ وَهُـم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُـونَ}(٦). والعبادة لله هى القاسم المشترك بين رسالات الرسل جميعاً. وهى الأمانة التى عرضها الله على{السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً}(٧) وللعبادة لذة لا يشعر بها إلا العباد

(١) - سورة الذاريات. الآيتان رقم (٥٦، ٥٧).
(٢) - سورة الإسراء. الآية الأولى.
(٣) - سورة الكهف. الآية الأولى.
(٤) سورة مريم. الآيتين (٣٠، ٣١).
(٥) سورة النساء. الآية رقم (١٥٦).
(٦) سورة الأنبياء الآية رقم (٢٧).
(٧) سورة الأحزاب. الآية رقم (٧٢).

المخلصون لله. قال أحدهم: " نحن فى لذة لو شعر بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم". وقال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرة عيني فى الصلاة» وكان يقول لبلال: «أرحنا بها يا بلال».

وعروة بن الزبير رضى الله عنه قطع منه أحد أعضائه وهو يصلى فلم يشعر بذلك. ولا يستغربن أحداً ذلك فإن بؤرة الشعور إذا استولى عليها مؤثر فإنها لا تشعر بسواه... فالنسوة التى دعتهم امرأة العزيز لتريهن جمال يوسف عليه السلام قطعن أيديهن ولم يشعرن بذلك. وكان أبو حنيفة يصلى وسقطت حيه من سقف المسجد إلى جداره وفزع الناس وخرج بعضهم من الصلاة لكن أبا حنيفة لم يفعل. ولما سُئل عن ذلك قال: إنه لم يرها لأنه كان مستغرقاً فى لذة المناجاة لله تعالى.

ثواب العابدين

ويحسن أن نتحدث عن بعض ثواب العابدين لله. ومن ذلك:

جعل الله سبحانه وتعالى لهم البشرى... قال تعالى{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}[1] فقد وصف الله العابدين بأن لهم البشرى وأضافهم إلى ذاته المقدسة - وهى إضافة تشريف. وبأنهم يتبعون أحسن ما يسمعون. وبأنهم هم الذين هداهم الله. وهم أصحاب العقول وكفى بذلك تشريفاً وتكريماً.

لم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً... فقال عز وجل{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}[2]. أن الله جعل لهم الأمن يوم القيامة... قال تعالى{يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}[3] جعل العبادة سبباً لانشراح الصدور... قال تعالى{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[4] والعبودية لله شرف وعز. بعكس العبودية للبشر فإن العبودية للبشر تعنى القهر والإذلال بعكس العبودية لله:

---

(١) سورة الزمر الآية رقم (١٨).
(٢) سورة الإسراء. الآية رقم (٦٥).
(٣) سورة الزخرف الآية رقم (٦٨).
(٤) سورة الحجر. الآيات (٩٩، ٩٨، ٩٧)... والمراد باليقين هنا هو الموت. أى أعبد الله حتى تموت.

ومما زادنى شرفاً وتيهاً ::: وكدت بأخمصى أطأ الثريا[1]
دخولى تحت قولك: يا عبادى ::: وأن صيرت "أحمد" لى نبياً

ثانياً – العدل مع النفس:

وقد يستغرب إنسان هذا التعبير فيقول: وهل يتصور أن يظلم الإنسان نفسه وكل منا حريص على أن يوفر لها الطعام والشراب والملبس والمسكن وقضاء الشهوة؟ وأقول أن كثيراً من الآيات ذكرت أن الإنسان قد يظلم نفسه. وكذلك ذكر رسول الله أن الإنسان قد يظلم نفسه.

فمن الآيات القرآنية نقرأ قول الله تعالى{وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}[2]. فأثبتت الآية أن الإنسان يظلم نفسه. وذلك يكون بفعل المعاصى وتعريضها لغضب الله... وقال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[3] فظهر من مجموع هذه الآيات أن العدل مع النفس يكون بالابتعاد عن معاصي الله وإلزامها طاعته. فقد قال النبي ﷺ: «**إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فاعط كل ذي حق حقه**». وتحضرني واقعة وقعت مع سلمان الفارسي وأخيه أبى الدرداء رضى الله عنهما - فقد آخى بينهما رسول الله - فقد ذهب سلمان الفارسي لزيارة أبى الدرداء فوجد امرأته فى ثياب مبتذلة. ولما سألها عن سبب ذلك قالت: إن أخاك أبا الدرداء، يصوم النهار ويقوم الليل [4] وقدم أبو الدرداء الطعام لأخيه سلمان واعتذر عن الأكل معه بأنه صائم - صيام تطوع - فامتنع سلمان أن يأكل حتى يأكل معه. فأكل ولما صليا العشاء ذهب أبو الدرداء ليقيم ليله مصلياً كما هي عادته فأقسم سلمان عليه أن ينام ففعل أبو الدرداء. وقاما قبيل الفجر وصلياً ما قدر لهما أن يصلياً. وشكا أبو الدرداء أخاه سلمان إلى رسول الله بأنه جعله يفطر وهو صائم. وأنه جعله ينام عن قيام الله. وذكر سلمان لرسول الله أن أبا الدرداء مقصر فى حق زوجته. فقال رسول الله لأبى الدرداء: «**سلمان أفقه منك**»[5].

---

(١) الثريا: نجم فى السماء.
(٢) سورة النساء. الآية رقم (١١).
(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٦).
(٤) تعنى بقولها أنه أنشغل بالعبادة عنها. وقد رآها قبل فرض الحجاب عليهن.
(٥) الحديث رواه البخارى.

ثالثا – العدل مع الغير:

ويضع النبى ﷺ ميزاناً لذلك فيقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

ومن الممكن أن نقسم هذا العدل إلى ثلاثة أقسام:

١ - العدل مع من هو فوقك.

٢ - العدل مع من هو دونك.

٣ - العدل مع من يناظرك.

* فأما العدل مع من هو فوقك: فيتمثل فى طاعة الرئيس وطاعة الابن لوالديه.

* وأما العدل مع من هو دونك: فيتمثل فى عدل الرئيس مع مرؤوسيه وعدل الأبوين مع أولادهما. وأما العدل مع النظير فيتمثل مع الباقى.

فالعدل مع الرئيس يتمثل ذلك فى طاعته إلا إذا أمر بمعصية. فإذا أمر بها فلا طاعة له. قال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}[2].

فأنت تجد أن أمر أطيعوا تكرر مع لفظ الجلالة ومع الرسول ولم يتكرر مع أولى الأمر منكم للدلالة على أن طاعته مرتبطة بأن يكون أمره لا يخالف أم الله ولا أمر الرسول ﷺ. ومن العدل مع الرئيس تقديم النصيحة له. وتكون بالرفق واللين وبعدم التعالي عليه وإنما تكون بدافع الحب له ومساعدته على القيام بالمسؤولية المنوطة به. قال رسول الله: «الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[3] والأئمة جمع إمام وهو الرئيس الأعلى للأمة.

فمن النصح للإمام تنبيهه عند الغفلة وإرشاده عند الهفوة وتحذيره ممن يريد به وبالأمة شراً. روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله قال: «ثلاث لا يغفل عنهم قلب رجل مسلم: العمل لله ومناصحة ولاة الأمر والاعتصام بجماعة المسلمين». وقال رسول الله أيضا: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: يرضى أن تعبدوه ولا تشركوا به

(١) حديث صحيح رواه الشيخان.
(٢) سورة النساء الآية. رقم (٥٨).
(٣) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن تميم الدارى رضى الله عنه.

شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. وأن تناصحوا مـــن ولاه الله علـــيكم. ويكره لكم: قيل وقال. وكثرة السؤال. وإضاعة المال».

وطاعة الوالدين نوع من العدل مع من هو فوقك. ولقد قرن الله حق الوالدين بحقه تعالى. وقال عز من قائل{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَـــبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}[1] وقال بعض الصالحين: " أن الله قرن ثلاثا بثلاث لا تقبل واحدة دون الأخرى: الأولى.. إن الله قرن الصلاة بالزكاة - قال تعالى{أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُـــوا الزَّكَـــاةَ}[2] وقرن الله طاعته بطاعة رسوله فقال تعالى{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[3] وقرن شكره بشكر الوالدين قال تعالى{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}[4]. ثم إن الوالدين لهما حق على الإنسان حتى بعد وفاتهما.: «جاء رجل إلى رسول الله وقال: يا رسول الله.. هل بقى على من البر شيء أبر به والدى بعد وفاتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما. فقال الرجل: ما أكثر هذا وأكثره يا رسول الله وأطيبه. قال: فاعمل به» [5].

روى الإمام مسلم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه لقيت رجل من الأعراب بطريق مكة. فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه. وأعطاه عمامته التى كانت على رأسه قال ابن دينار: قد أصلحك الله إنهم أعراب ويرضون باليسير! فقال ابن عمر: إن أبا هذا كان ودوداً لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله يقول: «إن أبـــر البر صلة الولد أهل ود أبيه». وقال: «من أصبح مرضياً لأبويه أصبح لـــه بابـــان إلى الجنة. ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحد لواحد وإن ظلما وإن ظلما. وإن أصبح مسخطاً لوالديه أصبح لـــه بابان مفتوحان إلى النار. ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحد فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما».

---

(١) سورة الإسراء. الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).
(٢) سورة المزمل. الآية رقم.
(٣) سورة النساء. الآية رقم (٥٨).
(٤) سورة لقمان. الآية رقم (١٠).
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه. وهو من رواية أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى.

وأما العدل مع من هو دونك فمثل عدل الرئيس مع المرؤوسين. ويكون هذا العدل بأن يعامل الرئيس مرؤوسيه بالسوية. وأن قريبهم وبعيدهم سواء فلا يجامل أحداً على حساب أحداً. ولا يحمل بعضهم على رقاب بعض.. وقال أحد القضاة لأهله: موتوا جوعاً ولا تذبحونى. فأنا مثلى ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه. فلما كبروا نحروه. ولكنى لا أمكنكم من ذلك " وقال محمد بن على بن الفضيل: " ما كنت أعلم أن أمور الرعية تجرى على عادة ملوكها حتى رأيت لناس فى أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور والقصور. ورأيتهم فى زمن عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخير وإعطاء الصدقات "... وقد قيل فى تعليل ذلك: إن السلطات كالسوق وكل واحد يجلب إلى السوق ما يعلم أنه نافع فيه. ومن عدل الأب مع أولاده أن يسوى بينهم فى العطاء فلا يفضل أحدهم على أخيه. وكان بعضهم يساوى حتى فى القُبلة بينهم وكان يضع أحدهم على فخذ والآخر على الفخذ الآخر ثم ينقل هذا وهذا مكان هذا. وأما العدل مع من يناظرك فيتمثل فى أن تعطيه حقه قبل أن تطالب بأن تأخذ حقك منه. ويتمثل ذلك فى أن تحب له من الخير مثل ما تحبه لنفسك. وأن تكره له ما تكرهه لها.

يقول بعض الحكماء: الظلم ثلاثة أنواع:

١- ظلم لا يغفره الله أبداً. ٢- وظلم لا يتركه الله أبداً.

٣- وظلم لا يأبه الله به.

فأما الظلم الذى لا يغفره الله أبداً فهو الشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. وأما الظلم الذى لا يتركه الله أبداً فظلم العباد فيما بينهم. وأما الظلم الذى لا يأبه به فظلم العبد فيما بينه وبين الله يعنى تقصيره فى بعض العبادات؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه. فلنكن عادلين مع الناس ولنحذر ظلمهم. وبخاصة من لا يجد له ناصراً إلا الله وهم الضعفاء. فبعض الناس يظلم وهو آمن أن هذا المظلوم لن يفعل معه شيئاً لأنه ضعيف وفقير ولا حول له ولا قوة معه... ولقد قال أحد العارفين ما هبت شيئاً قط هيبتى رجلاً ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله ويقول: " حسبى الله. الله بينى وبينك ". قال الحسن البصرى: أوصى الله إلى آدم بأربع خصال: وقال جماع الأمر لك ولولدك من بعدك: واحدة لى. وواحدة لك. وواحدة بينى وبينك. وواحدة بينك وبين الخلق... فأما التى لى فتعبدنى ولا

تشرك بى شيئاً. وأما التى لك فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الإجابة. وأما التى بينك وبين خلقى فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به. اللهم بغض إلينا الظلم واكفنا شر الظالمين... إنك على ما تشاء قدير.

* * * * *

obeikandl.com

من أخلاق المؤمنين:

المسارعة

في الخيرات

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}

obeikandl.com

المسارعة فى الخيرات

المؤمن كيس فطن. يعلم علم اليقين أنه سوف يرحل يوماً عن هذه الحياة الدنيا طال عمره أو قصر. وعليه أن يستغل هذا الوقت فى طاعة الله. ذلك أن الإنسان لا يملك إلا وقته الذى يعيش فيه كما قيل بحق: " المؤمن ابن وقته ". فالوقت الذى مضى لن يعود أبداً. والوقت الذى يستقبله لا يضمن هل يعيش ليدركه أم لا؟ فوقته الذى يحياه هو الذى يملكه من الزمن. فمن اشتغل فيه بطاعة ربه أداءً للصلاة ودفعاً للزكاة. وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر. فهو السعيد حقاً. ومن قضى هذا الوقت فى طاعة الشيطان واتباعاً للهوى وانشغالاً بالدنيا عن الآخرة فهو الشقى المحروم.

فالدنيا مزرعة للآخرة. فمن زرع خيرا حصد سلامه. ومن زرع شرا حصد ندامة ولكن لا تنفع ساعة ندامة - "لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به"[1]... وكما قلنا قبل ذلك الحساب بمثاقيل الذر - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره "[2].

وعمر الإنسان هو رأس ماله؛ ولذلك فالعجب من الإنسان يقول لآخر: هيا بنا نقتل الوقت!! والحق إن هذا الإنسان يقتل نفسه. أو يقول: هيا بنا نضيع الوقت!! كأن الوقت شيء تافه لا مانع من إضاعته! بينما الوقت فى الحقيقة أنفس شيء فى هذه الحياة. ويوم القيامة سوف لا يندم الناس كما يندمون على أنهم أضاعوا أوقاتهم فيما لا ينفعهم... يُروى أن عبداً صالحاً قال: تخيلت نفسى فى الجنة أعانق أبكارها. وآكل ثمارها وأشرب من أنهارها. وقلت لنفسى: يا نفسى.. ماذا تشتهين؟ فقالت: أن أعود إلى الدنيا لأستزيد من العمل الصالح حتى أستزيد من هذا الثواب... قال وتخيلت نفسي فى النار أعانى من أغلالها وقيودها. وآكل من زقومها وأشرب من حميمها وغسيقها. وقلت لنفسى. يا نفسي.. ماذا تشتهين؟ فقالت: أن أعود إلى الدنيا مرة ثانية لأعمل عملا صالحا حتى أنجو من هذا العذاب. فقال لها: يا نفسي هاأنذا فى الدنيا فاعملي.

والقرآن الكريم يقص علينا طُرفاً من أقوال أهل النار وكيف يتمنون العودة إلى الدنيا

---

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى بسند صحيح.
(٢) سورة الزلزلة.

ولكنهم لا يجابون. قال تعالى:{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}. ويأتي الرد من الله الذي يزيدهم يأسا وقنوطا:{أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} (١). والرد عليهم برفض طلبهم وعدم إجابتهم رد عادل. فقد أعطاهم الله العمر وأرسل إليهم الرسل. ولكنهم أفنوا أعمارهم فى مخالفة الله. وعصوا رسلهم برغم وضوح الآيات وظهور المعجزات... فويل لهم مما كانوا يعملون. وفى آية أخرى يقول عنهم:{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ}. ويأتى الرد أيضا فى تكملة الآية:{كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}(٢). وقد وضع الله المنهاج الذى يجب أن يتبعه المؤمن فى قضاء وقته. فقال عز من قال:{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}(٣).

فالمؤمن إذا فرغ من عمل بدأ فى عمل آخر. وإذا فرغ من عبادة ربه وأداء فرضه عليه أن ينصب وأن يتعب فى تحصيل رزقه. وهذا العمل الذى للدنيا - كما يرى البعض - ينقلب عملا صالحا للآخرة إذا نواه ليستعين به على طاعة ربه.

المؤمن يعلم أن عمره يسير به سير السفينة بركابها - فهو فى الحقيقة مسافر - أول منازله حلته فى دنيا المهد. وآخر محطة الوصول هى اللحد. ووطنه بعد الرحلة جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... أو نار وقودها الناس والحجارة. وعمر الإنسان مسافة سفره من المهد إلى اللحد. تبين السنون مراحله وتكون الشهور فراسخه. وتحدد الأيام أمياله وتعين الأنفاس خطواته... وطاعة الله زاده ونوره قرآن ربه وسنة نبيه ﷺ. وشهواته قطاع طريقه. وربحه فى النهاية الفوز بلقاء الله وجنته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المؤمن فى صراع مع الزمن يبادره بعمله الصالح قبل فوات الأوان. ودافعه إلى ذلك قول الله تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ

---

(١) سورة فاطر. الآية رقم (٣٧).
(٢) سورة المؤمنون. الآيتان رقم (٩، ١٠).
(٣) سورة الشرح.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [1]. ويقول فى آية أخرى:{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [2].

ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة المسارعة إلى أسباب ذلك بفعل الطاعات واجتناب السيئات. فاللسان يسارع إلى كلمة الحق شهادة به ودلالة على الخير أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر. واليد تسارع إلى إعطاء الصدقة ومعاونة المحتاج. والعين تسارع إلى صفحات العلم والتأمل فى آيات الله فى كونه. والقلب يسارع إلى مشاعر الخير ينفعل بها ويحض عليها.

ولقد أثنى الله على أنبيائه بأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات. فقال عن زكريا عليه السلام:{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [3]. وكذلك أثنى الله تعالى على بعض أهل الكتاب بأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات. قال تعالى:{مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [4].

والقرآن الكريم - كذلك - لا يسوى بين من أنفق من قبل الفتح - فتح مكة - وبين من أنفق بعد ذلك. قال تعالى:{لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [5].

وهكذا تفيض آيات القرآن الكريم ثناء ومدحا للذين يسارعون فى الخيرات وإليها يتسابقون. إذ هى دعوة قوية للتحلي بفضيلة المبادرة. وتحث آيات أخرى على المنافسة للفوز برضا الله. قال تعالى:{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [6]. والآية الكريمة تشير

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١٣٣).
(٢) سورة الحديد. الآية رقم (٢١).
(٣) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٨٨، ٨٩).
(٤) سورة آل عمران. الآيتان رقم (١١٣، ١١٤).
(٥) سورة الحديد. الآية رقم (١٠).
(٦) سورة المطففين. الآية رقم (٢٦).

إلى ثواب الله المذكور فى الآيات السابقة وذلك فى قوله تعالى:{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ} [1]... وفى النظم الشريف قصر للمنافسة وأنها على هذه الأشياء: التنعم. الجلوس على الأرائك. نضرة الوجه. الشراب من الرحيق المختوم الذى ختامه مسك... وكأن الله قال: المنافسة لا تكون إلا فى هذه الأشياء. وإذا رجعنا إلى سنة رسول الله ﷺ فإننا نجده ﷺ يقول: «بادروا بالأعمال فإنه ستكون فتنا تقطع الليل. يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا. ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا. يبيع دينه بعرض الدنيا» [2]. ويحض على إتيان الصلاة فى وقت الفضيلة فقد سئل ﷺ: «أي العمل أفضل يا رسول الله؟ فقال: الصلاة لوقتها. قيل: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله» [3]. ويقول ﷺ فى حديث آخر: «أول الوقت رضوان الله. ووسط الوقت رحمة الله. وآخر الوقت مغفرة الله» [4]. ويعلق أبو بكر الصديق على ذلك فيقول: رضوان الله أحب إلينا من عفو الله. لأن رضوان الله للمحسنين وعفوه للمقصرين.

ويدعو ﷺ إلى أداء الحج متى تحققت الاستطاعة. فقد يمرض الإنسان. وقد تذهب الاستطاعة. وقد يكون الطريق مخوفا بعد ذلك فقال ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا» [5]... ويدعو ﷺ إلى إخراج الصدقة. وقد سئل ﷺ: «أى الصدقة أفضل؟ فقال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم. قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان كذا» [6]. ولعل السائل كان يسأل عن نوع الصدقة. وهل بالمال أفضل أم بالطعام؟ ولكن رسول الله ﷺ بين أن أفضل الصدقة أن يتصدق الإنسان وهو صحيح بكامل صحته وله آمال وله طموحات يريد أن يحققها ومع ذلك يتصدق. فهذه الصدقة أفضل من الصدقة التى يخرجها الإنسان حينما يعاين منيته وتصل الروح إلى الحلقوم. كما يدعو رسول الله ﷺ إلى المبادرة بالتوبة فيقول: «إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل. و يبسط يده بالليل

(١) سورة المطففين. الآيات أرقام (٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦).
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) الحديث رواه الدارقطنى وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.
(٥) الحديث رواه الأصبهانى عن ابن عباس.
(٦) حديث صحيح... ومعنى بلغت الحلقوم أى وقت خروج الروح.

ليتوب مسيء النهار. حتى تطلع الشمس من مغربها» [1]. ويرحم الله القائل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ::: فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ::: فما تدرى السكون متى يكون
إذا ظفرت يداك فلا تقصر ::: فإن الدهر عادته يخون

والتبكير فى الذهاب لصلاة الجمعة مسارعة فى الخيرات: «فمن راح فى الساعة الأولى فكأنما قدم بدنة. ومن راح فى الساعة الثانيه فكأنما قدم بقرة. ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قدم كبشا. ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قدم دجاجة. ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قدم بيضة» [2]... فانظر - رحمك الله - إلى الفرق بين البدنة والبيضة. هذا الفارق الضخم سببه المسارعة فى الخيرات. وذلك بالذهاب مبكرا إلى المسجد لصلاة الجمعة.

هؤلاء الذين يجلسون فى بيوتهم حتى يصعد الإمام المنبر وربما كانت بيوتهم فى مقابلة باب المسجد! بل هؤلاء الذين يأتون والخطيب يدعو للمؤمنين والمؤمنات فى آخر الخطبة الثانية!! هؤلاء وأولئك أى ثواب قد حرموا أنفسهم منه بسبب عدم المسارعة فى فعل الخيرات؟

ولقد كان رسول الله ﷺ مثلا أعلى فى المسابقة إلى الخيرات... يروى أبو سروعة عقبة بن الحارث قال: «صليت العصر فى مسجد المدينة مع رسول الله ﷺ. فلما فرغ من صلاته قام مسرعا إلى إحدى حجرات نسائه فمكث قليلا ثم خرج ثم قال: تذكرت شيئا من تبر وخشيت أن يحبسني فأمرت بقسمته وعدت إليكم» [3]. فأنت ترى أن رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من الصلاة قام مسرعا على خلاف عادته من ختام الصلاة ثم رجع. ذلك لأنه تذكر شيئا من تبر - يعنى قليلا من ذهب - فأمر بقسمته لأنه خشي أن

---

(١) الحديث رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى.

(٢) حديث شريف رواه البخارى ومسلم. وهو من رواية أبى هريرة - وفى أول الحديث: (من اغتسل يوم الجمعة غسل جنابة). وفى آخره: (فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر).

(٣) رواه البخارى وقال حديث صحيح وهو من رواية أبى هريرة - ومعنى الحديث أن من خاف من الله التجأ إليه وبادر بالأعمال الصالحة حتى يدخل الجنة. فالجنة سلعة غالية لا تنال بالكسل والتقصير... قال أحدهم:

الحياة الجد والجد الحياة ::: موت من يكسل أولى من بقاه

يلحق بالرفيق الأعلى وعنده هذا القدر من الذهب. وهذا عمير بن الحمام كان فى يده بعض تمرات. والمعركة بين أنصار الله وبين أنصار الطاغوت على وشك الانفجار. ويسأل رسول الله ﷺ عن مصيره إذا استشهد فى هذه المعركة. ويخبره الرسول ﷺ بأن مصيره الجنة. فينظر إلى التمرات فى يده ويقول: أأعيش حتى آكل هذه التمرات؟ إنه لعمر طويل. ولماذا أتأخر عن دخول الجنة؟ ويلقى بهن بعيدا وهو يقول:

ركضـــــا إلى الله بغـــــير زاد ::: إلا التقـــــى وعمـــــل المعـــــاد
والصـــــبر فى الله علـــــى الجهـــــاد ::: وكـــــل زاد عرضـــــة للنفـــــاذ

إلا التقى والبر والرشاد

ويدخل المعركة يضرب بسيفه لنصرة رسوله ولنصرة دينه. فيلقى الشهادة ويدخل الجنة كما وعده رسول الله ﷺ إن الذين يسارعون فى الخيرات قوم لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يخدعهم الأمل الكاذب. يعلمون أن الأعمار محدودة والأنفاس معدودة. وأن الخوف من الله تعالى هو السبيل إلى نجاتهم... قال ﷺ: «من خـــاف أدلج ، ومـــن أدلج بلـــغ المنـــزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن ســـلعة الله الجنـــة» [1]. فلأنهم يخافون الله يمشون مسرعين أول الليل. ولذلك يصلون إلى غايتهم قبل المتثاقلين المتباطئين. إنهم يطلبون سلعة الله. وسلعة الله غالية إنها الجنة. ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر. يقول النبى ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعاً: هل تنظرون إلا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال.. فشر غائب ينتظـــر. أو الساعة والساعة أدهى وأمـــر» [2]. نعم هذه عقبات تحول بين الإنسان وبين فعل الخير. فعلى الإنسان أن يبادر هذه العقبات ويسبقها قبل أن تأتى... فالغنى هو الذى يكون سببا فى الطغيان والبخل به وعدم إخراج زكاته عقبة كأداء على المسلم أن يتخطاها ولا يقف عندها. قال تعالى:{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [3] .

والفقر الذى يشغل صاحبه بالبحث هنا وهناك. يسعى على رزقه وينسى ما عليه من حقوق يجب أن يؤديها نحو ربه عقبة أخرى... والمرض الذى يفسد البدن ولا يستطيع

(١) رواه الترمذى.
(٢) أو كما قال ﷺ.. رواه الترمذى وقال حديث حسن - وفى الحديث (تقديم الفقر المنسى على الغنى المطغى).
(٣) سورة العلق. الآيتان رقم (٦، ٧).

صاحبه أن يؤدى عبادته كما كان يؤديها وهو سليم عقبة ثالثة... والشيخوخة التى تقعد الإنسان عن أداء الحج أو شهود الجماعة عقبة رابعة... والخامسة تتمثل فى الموت الذى يأتي فجأة وليس لـه ميعاد محدد يستعد لـه الإنسان فيه بل يموت الصغير قبل الكبير ويموت الحفيد قبل الجد. والعاقل من يتخطى هذه العقبة بأن يأخذ من حياته لموته. ومن شبابه لهرمه... ومن العقبات ظهور الدجال - نعوذ بالله منه ومن فتنته[1] - وكذلك أيضا مجيء الساعة وقد ظهرت أماراتها واقتربت كما قال تعالى:{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}[2].

يروى أن أبا موسى الأشعري اجتهد فى آخر عمره اجتهادا شديدا فى العبادة. فقيل لـه: لو رفقت بنفسك بعض الرفق. فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت نهاية الشوط أخرجت جميع ما عندها من القوة والعدو. والذى بقى من عمرى أقل من ذلك. يقول النبى ﷺ: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك. وصحتك قبل سقمك. وغناك قبل فقرك. وفراغك قبل شغلك. وحياتك قبل موتك» [3].

وكأنى بسائل يسأل: ألا تتناقص دعوتك إلى المسارعة مع الحديث الذى يقول: «العجلة من الشيطان» [4]. وقول من قائل: " فى التأنى السلامة. وفى العجلة الندامة "؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن الأمور تتفاوت فمنها ما يحمد فى التأخير لكونه مما يحصل على تأن وتؤده وتمهل لأنه يحتاج إلى دراسة وإعادة نظر. ومنها ما يحمد فيه التعجيل والسرعة وانتهاز الفرصة لأن ضياع الفرصة غصة كما يقولون. ومن هذا القبيل ما أمر رسول الله صهره وابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه به. حيث يقول: «ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا حان وقتها. والجنازة إذا حضرت. والأيم إذا وجدت كفئا»[5].

---

(١) المسيح الدجال شخص ابتلى الله به عباده. يدعى الألوهية. وهو أعور العين. مكتوب بين عينيه كافر ولا يقرأها إلا المؤمن. يقدره الله على إحياء الموتى. ويمده بكثير من خوارق العادات حتى يكون فتنة للناس. يدخل البلاد بفتنته إلا مكة والمدينة المنورة. وستكون نهايته على يد نبى الله عيسى عليه السلام الذى سينزل آخر الزمان ويكون فى صفوف المؤمنين من أمة محمد ﷺ. ومن السنة أن يستعيذ المسلم بربه من شره ومن شر فتنته.

(٢) سورة القمر. الآية رقم (١).

(٣) رواه الحاكم وقال حديث صحيح. وراوى الحديث هو الصحابى الجليل ابن عباس رضى الله عنه.

(٤) رواه أبو يعلى عن أنس. ورواته رواة الصحيح.

(٥) الأيم: هى من لا زوج لها.

وهذا حق فالصلاة تؤدى فى أول وقتها أفضل منها حينما تؤخر. وقد يموت الإنسان وهو غير مؤد لها ويسأل عنها لماذا لم تؤد الصلاة المفروضة عليك؟... والجنازة إذا حضرت يصلى عليها وتدفن. فكرامة الميت دفنه كما يقال إلا إذا كانت هناك ضرورة... والمرأة التى لا زوج لها متى وجدت الكفء الصالح، فالخير كل الخير فى تزويجها ولا تؤجل. والمسارعة التى يدعو إليها هى المسارعة فى فعل الخير. أما المسارعة فى فعل الشر فهذا أمر مرفوض. ندعو إلى تركه بالمرة وعدم فعله لا على وجه السرعة ولا على وجه البطء [1]. وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على الذين يسارعون فى الخيرات فإن القرآن قد ذم الذين يسارعون فى الإثم والعدوان وإيذاء الناس ومعصية الله تعالى. قال تعالى:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} [2].

قال تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ:{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [3]. فالله يسلى رسوله ويأمره بعدم الحزن لأن هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر لن يضروا الله شيئا. إنما يضرون أنفسهم حيث يجدون العذاب العظيم ينتظرهم فى الآخرة. ويقول فى سورة المائدة:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[4].

يذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذه الآية الكريمة نزلت فى المسارعين فى الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله. المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله من المنافقين الذين اظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية. ومن أعداء الإسلام

---

(١) جاء فى حديث رسول الله ما يؤكد هذا المعنى: (التؤدة فى كل شيء إلا فى عمل الآخرة) - رواه أبو داود.

(٢) سورة الكهف. الآيتان رقم (١٠٣، ١٠٤).

(٣) سورة آل عمران. الآية رقم (١٧٦).

(٤) سورة المائدة. الآية (٤١).

وأهله وهم لذلك حينما احتكموا إلى رسول الله ﷺ فى إقامة الحد على زان وزانية - وفى التوراة الرجم - ولكنهم قالوا نحتكم إلى محمد فإن حكم بالجلد ننفذ حكمه وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه. فلما حضر أمرهم بإحضار التوراة وأن يقرءوا فيما جاء فيها. فقرأ واحد منهم ما قبل الرجم وما بعده. ولكن رسول الله ﷺ أمر القارىء أن يرفع يده عن الرجم. فرفع فإذا آية الرجم تلوح " انتهى بتصرف ". وهؤلاء اليهود والمنافقون الذين يسارعون فى الإثم والعدوان وصف الله قلوبهم بالنجاسة فلم يرد الله أن يطهر قلوبهم بل جعلها كما هى مأوى للكفر والنفاق ولقد أخزاهم الله فى الدنيا وفضح أمرهم. وفى الآخرة لهم عذاب عظيم.

روى عن جابر بن عبدالله قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يأيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا. وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا. وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم وكثرة الصدقة فى السر والعلانية. ترزقوا وتنصروا وتجبروا**». (١)

وعن عبدالرحمن السلمى قال: نزلنا من المدائن على فرسخ. فلما جاءت الجمعة. فخطبنا حذيفة قال: إن الله يقول اقتربت الساعة وانشق القمر. ألا وإن الساعة قد اقتربت. ألا وإن القمر قد انشق. ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق. ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق.. فقلت لأبى أيستبق الناس غدا؟ قال: يا بنى إنك جاهل! إنما يعنى العمل اليوم والجزاء غدا. فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا. فخطبنا حذيفة فقال: إن الله يقول اقتربت الساعة وانشق القمر. ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق. ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق. ألا وإن الغاية النار والسباق من سبق إلى الجنة (٢).

* * * * *

(١) رواه ابن ماجة.
(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

من أخلاق المؤمنين:

التوبة

أوحى الله إلى داود عليه السلام (يا داود: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود.. هذه إرادتي فى المدبرين عنى فكيف إرادتي بالمقبلين على).

التوبـــة

خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة من النور الصافى. فكانوا روحانيين ليس لهم شهوة فى طعام أو شراب أو نكاح. فهم عباد مكرمون{لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَـا يُؤْمَرُونَ}[1].{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُـمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[2]... وخلقت البهائم من الشهوة الخالصة. همها الأكل والشرب والنسل... والشياطين خلق أبوهم إبليس من النار. واعتز الملعون بذلك وزعم أنه أفضل من آدم فحقت عليه اللعنة. وطرد من رحمة الله وصار همه إغواء بنى آدم[3]... وخلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه. وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلبت روحه شهوته اتصل بعالم النور - عالم الملائكة. ومن غلبت شهوته روحه انحط إلى درك البهائم وصار ألعوبة فى يد الشيطان.

والأصل الأصيل فى خلق الإنسان أنه مخلوق على الفطرة ولكنه إذا انساق وراء شهوته وشيطانه وهواه خرج عن تلك الفطرة: «كل مولود يولد على الفطرة. فـأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسـانه» [4] وكان رسول الله ﷺ يقول لمن أتاه مستفتيا: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، الإثم ما حاك فى الصدر وكرهـت أن يطلع عليه الناس. والبر ما اطمئن إليه القلب» [5].

فإذا زلت القدم. ووقع الإنسان فى شرك المعصية وألقى حبله فى يد الشيطان. فصار ألعوبة يصرفها كيف يشاء. فإن الله لا يترك عبده ولا يتخلى عنه وإنما يفتح لـه باب التوبة على مصراعيه فيدخل فيه: وإذا تاب وأناب غفر لـه وكانت دموعه أحب إلى الله تعالى من رجل المسبحين.: «وإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط

---

(١) سورة التحريم. الآية رقم (٦).

(٢) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٢٧، ٢٨).

(٣) جاء هذا المعنى فى أكثر من آية فى القرآن الكريم. قال تعالى:{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}... إلى أن قال:{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} سورة الأعراف. من الآية رقم (١٢) حتى الآية رقم (١٨).

(٤) حديث شريف.

(٥) الحديث رواه أحمد والدارقطنى بسند صحيح.

يده بالنهار ليتوب مسيء الليل» [1]. وقد قيل بحق: (إن التجرد للخير المحض دأب الملائكة المقربين. والتجرد للشر المحض شجية الشياطين المرجومين. والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين). فقد ازدوجت فى طينة آدم شائبتان: التراب والروح. فأما أن ينزع الإنسان إلى الأرض. وأما أن يسموا إلى الملائكة.

مضار المعصية

المسلم الخير ينفر من المعصية نفوره من أى شيء يؤذيه كالسبع والحريق والمرض. وبالتالى فعليه أن يفر من المعاصى كما يفر من مجذوم - فإن سوء الخلق معدى - بل أن المعصية أشد فتكا من أى مرض فالمرض إذا قوبل بالصبر والرضا كان كفارة لذنوبه. والرضا بالمعصية قد يؤدى بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله. فيكون قد خسر الدنيا والآخرة - وذلك هو الخسران المبين.

من مضار المعصية وشؤمها ما يلى:

١ - الحرمان من العلم... ذلك لأن العلم نور والمعصية ظلام وهما لا يجتمعان. قال الإمام مالك للشافعى حينما رأى ذكاءه المتقد: أرى أن الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية. ولقد شكا الشافعى إلى شيخه وكيع سوء حفظه برغم ذكائه وسرعة حفظه! فأرشده شيخه إلى ترك المعاصى. وقال إمامنا[2] فى ذلك:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ::: فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأرشدنى بأن العلم نور ::: ونور الله لا يهدى لعاصى[3]

فالمحروم من العلم محروم من خير كثير: «ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» [4]: «وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. ودرس علم خير من عبادة ستين سنة» [5]. ونهمس فى آذان أبنائنا وبناتنا طلاب وطالبات العلم

---

(١) حديث شريف رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى. وفى آخر الحديث: (حتى تطلع الشمس من مغربها).

(٢) كان فضيلة الشيخ عبد العاطى - رحمه الله - شافعى المذهب معتزا بآراء الإمام الشافعى محبا له جدا ومقتفيا به فى كثير من آرائه وأفعاله. رحمه الله تعالى.

(٣) قال تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} سورة البقرة. الآية رقم (٢٨٢).

(٤) حديث شريف رواه البخارى ومسلم عن معاوية رضى الله عنه.

(٥) قال تعالى مؤكدا هذه الأحاديث الشريفة:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا

فنقول: إذا استقصى عليكم فهم مسألة من مسائل العلم فجدد نشاط ذهنك بالوضوء وصل لربك ما استطعت أن تصليه ثم عد إلى كتابك وسوف يفتح الله مغاليق ما استصعب عليك.

٢ - السيئة تغرى بالسيئة. كما أن الحسنة تغرى بالحسنة... فإذا وجدت من إنسان سيئة فاعلم أن عنده أخوات من السيئات مثلها. فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق. فجاءت أمه وقالت: هذه أول مرة يسرق فيها يا أمير المؤمنين. فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة.

ومن المعلوم أن الشيطان له حيله ووسوساته. وهو لا يجر الإنسان إلى المعصية مرة واحدة. وإنما يقوده إليها خطوة خطوة. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}[1]... فهو يخرجه من الشيء الأفضل إلى الفاضل. ثم تأتى الخطوة الثانية فيدخله فى الجائز مستوى الطرفين. ثم يغرقه فى المباحات. ثم إلى الصغائر. ثم إلى الكبائر. ثم إلى الشرك إن استطاع.

وتذكرون قصة المرأة التى كانت تصرع وزين الشيطان لأهلها أن دواءها عند العابد. فذهبوا إليه بها وحاولوا إقناعه ومازالوا به حتى قبلها. وزين الشيطان لهم الخطيئة حتى حملت منه. ثم خوفه من ظهور الفضيحة فأمره بقتلها ودفنها إخفاء لمعالم الجريمة. ولقنه الحجة أن يقول لأهلها: لقد جاءتها نوبة الصرع فماتت. فذهب اللعين إلى أهل الفتاة وأخبرهم بأمر العابد مع ابنتهم. فذهبوا إليه وعرفوا الحقيقة وأسقط فى يد العابد فوسوس له الشيطان أن يسجد له سجدتين حتى ينجيه مما هو فيه فسجد. فتبرأ منه الشيطان -{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ}[2].

بل إن الشيطان قد يدعو الإنسان إلى فعل الخير ولكن بقصد أن يوقعه فى الشر بعد

الألباب} سورة الزمر الآية رقم (٩).

(١) سورة النور. الآية رقم (٢١).

(٢) سورة الحشر. الآيتان (١٦، ١٧)... ومن هذه القصة نتعلم حرمة الخلوة بالنساء. جاء فى الحديث: (ما خلا رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان). وتحرم هذه الخلوة حتى لو كانت فى مجلس علم أو مدارسة قرآن - فليت قومنا يعلمون ذلك. وليتهم إذا علموا عملوا حتى لايكون الندم فى وقت لا يفيد فيه بكاء.

ذلك. فمثلاً قد يقول الشيطان للمصلى: أطل الركوع والسجود والقيام حتى يراك الناس ليقتدوا بك. ولكنه إذا صلى وحده لا يفعل ذلك - وهذا نوع من أنواع الرياء.

وإذا ألف الإنسان المعصية هانت عليه بعد أن كان يفر منها. ويصبح ذلك أمرا عاديا[1]. فبعض الشباب المسلم يسافر إلى الخارج ومعه قيمه وأخلاقه - ويرى هناك ما لم يره هنا - فينفر من ذلك أول الأمر. ولكن بعد مدة يكون إحساسه بالمعصية قد تبلد. وهكذا ينطفيء نور الإيمان فى قلبه.

يقول النبى ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال: هكذا - يعنى أبعده - فطار». وإذا وصل الحال بالمسلم إلى ذلك كان هذا هو الران الذى يغطى القلب. قال تعالى:{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [2]... فإذا أذنب العبد ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء. فإذا تاب من هذه النكتة عاد القلب كما كان. وإن لم يتب غطت هذه النكات على القلب وانطفأ نور الإيمان فى القلب [3] - نعوذ بالله من ذلك.

٣ - من مضار المعصية أن بعض الذنوب يؤدى إلى اللعن - والعياذ بالله - فقد لعن الله بعض مخلوقاته لعصيانهم له... فقال عن اليهود:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً} [4]... ولعن إبليس فقال تعالى:{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}[5] - فقد لعن الله اليهود لأنهم نسبوا الله إلى البخل وحاشاه عما يقولون علوا كبيرا. ولعن كذلك إبليس لأنه عصى ربه واستكبر وأبى أن يكون مع الساجدين.

ولعن رسول الله ﷺ الخمر وبائعها وشاريها. وعاصرها ومعتصرها. وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها... كما لعن رسول الله ﷺ الربا وكاتبه وشاهده... كما لعن الواشمة والمستوشمة. والواصلة والمستوصلة. والنامصة والمتنمصة... كما لعن ﷺ

---

(١) يقولون فى الحكمة القديمة: (كثرة المساس تفقد الإحساس).
(٢) سورة المطففين. الآية رقم (١٤).
(٣) جاء هذا المعنى فى حديث شريف عن رسول الله رواه الترمذى وصححه.
(٤) سورة المائدة. الآية رقم (٦٤).
(٥) سورة ص. الآيتان رقم (٧٧، ٧٨).

المتشبهين من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال. واللعن هو الطرد من رحمة الله - فأى شؤم للمعصية أكبر من هذا؟!... بل إن البهائم تلعن عصاه بنى آدم. ولقد استأذنت البهائم ربها أن تخسف الأرض بابن آدم. فقد طعم خير الله وجحد شكره. واستأذنت الجبال أن تخر عليه. واستأذنت البحار أن تغرقه... وهذا من شؤم المعصية.

٤ - المعصية تحرم صاحبها من استغفار الملائكة. كما قال تعالى:{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [١].

٥ - الحرمان من الرزق...: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» [٢]. وإن ما عند الله لا ينال بمعصيته. ولقد أخرج أبونا آدم من الجنة بأنه أكل من الشجرة المحرمة عليه بعد أن قال الله تعالى له{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى}. وخدع آدم عليه السلام بوسوسة الشيطان حينما قال له:{يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى}[٣].

ولا يقولن أحد: نرى بعض العاصين وأرزاقهم كثيرة والخيرات عندهم وفيرة! ونرى بعض الطائعين مقترا عليهم الرزق! فكيف يتفق هذا مع ما تقول؟ فنقول إذا رأيت بعض العصاة موسعا عليهم فى أرزاقهم فاعلم أن ذلك استدراج لهم كما قال تعالى:{سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [٤]. والاستدراج أن يصب الله النعم على العباد رغم نسيهم شكرها حتى يكونوا قد استنفدوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا بها. ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر - وهذا هو الكيد المتين المذكور فى الآية [٥]... فهذا قارون أعطاه الله من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة. فلما جحد وكفر خسف الله به وبداره الأرض. فما كان له من فئة

---

(١) سورة غافر. الآية رقم (٧).

(٢) حديث شريف رواه أحمد والنسائى وابن ماجة وأبويعلى.

(٣) سورة طه الآيات أرقام (١١٨، ١١٩، ١٢٠).

(٤) سورة القلم الآيتان رقم (٤٤، ٤٥).

(٥)أكد الله هذا المعنى فى القرآن الكريم فقال:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} سورة الأنعام. الآيتان رقم (٤٤، ٤٥).

ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين[1] .

والمؤمنون حقا هم الذين ينسبون الفضل لله ويتورعون عن الحرام. ومع ذلك يداومون على الاستغفار كما قال الله تعالى لنبيه محمدا ﷺ - وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً} [2]... سئل أحد الصالحين عن التوبة فقال للسائل: هل مشيت يوما فى طريق فيه شوك؟ قال: نعم. قال: فماذا كنت تعمل؟ قال: كنت أتقى مواضع الأشواك. قال له: كن كذلك مع المعاصى[3]...

خل الذنوب صغيرها ::: وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أرض ::: الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ::: إن الجبال من الحصى

وقال آخر:

فوا عجبا كيف يعصى الاله ::: وأم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية ::: تدل على أنه الواحد

وقد قلت فى هذا المعنى: [4]

عجبت لجاهل عاص ::: يبارزه بعصيانه
ويسمع صوته الحانى ::: يناديه بقرآنه
أنا التواب يا عبدى ::: ومن ترجو لإحسانه
فيعرض من شقاوته ::: مطيعا وحى شيطانه
ولو يدرى لعاد إليه ::: يسكب ماء أجفانه

(١) ذكر الله قصة قارون بالتفصيل فى سورة القصص. من الآية رقم (٧٦) وحتى الآية رقم (٨٣).
(٢) سورة النصر..
(٣) يبين الله لنا فى سورة العنكبوت نهاية العاصين من قوم لوط عليه السلام. وما أحله الله على قرى مدين من العذاب. وما حل بعاد وثمود من الخزى. وعاقبة قارون وفرعون وهامان. وكيف أن الله أهلكهم بسبب ذنوبهم... قال تعالى:{فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} سورة العنكبوت. من الآية (٣٣) وحتى الآية (٤٠).
(٤) فضيلة الشيخ عبد العاطى - رحمه الله - كان من الشعراء المعدودين الذين برعوا فى تطويع اللغة وصبها فى قالب شعرى رائع. وله قصائد كثيرة فى مجالات الشعر المختلفة وأهمها وأكثرها الشعر الدينى... انظر كتاب عبد العاطى سليم شاعرا وأديبا).

وقال آخر:

تصـــل إلى الـــذنوب وترتجـــى ::: درج الجنان ونيـــل فـــوز العابـــد
أنسيت ربك حـــين أخـــرج آدم ::: منها إلى الدنيا بـــذنب واحـــد[1]

باب التوبة مفتوح

إن للتوبة بابا يفتحه الله يفتحه الله تبارك وتعالى أمام المخطئين من عباده ليصححوا المسيرة إليه. فالله يعرف ضعف عبده. ويعلم أن الشيطان توعد بنى آدم وأنه سوف يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليصرفهم عن شكر اللهو عبادته. وما كان الله الرحيم بخلقه أن يتركهم فريسة للشيطان يتلاعب بهم. ففتح لهم باب التوبة... وفى الحديث القدسى عن رب العزة كما روى ذلك سيدنا محمد ﷺ: «يا ابـــن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابـــن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى. يا ابن آدم لو أتيتنى بتراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» [2].

ومن أسماء الله أنه التواب. وجاء هذا الاسم الشريف بصيغة المبالغة التى تدل كثرة توبته على عباده... يروى عن الحسن قال: «لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأتـــه الملائكة وهبط جبريل وميكائيل فقالا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك. فقـــال آدم عليه السلام: فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه: ورثت بنيك التعب والنصب وورثتهم التوبة. فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك. ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب. وأحشر التائبين من قبـــورهم مستبشـــرين ضـــاحكين ودعاؤهم مستجاب» [3].

والله يفرح بتوبة عبده المؤمن كما جاء فى الحديث الشريف: «الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته – تاهت منه – بأرض مهلكة دوية. عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى آيس من حصولها فنام فى أصل شجرة ينتظر الموت. ثم استيقظ فإذا هـــى

---

(١) ومن شؤم المعاصى أيضا أنها سبب فى بطش وجبروت الحكام والزعماء وتسلطهم على رعيتهم يسومونهم سوء العذاب. قال مالك بن دينار: كلما أحدثنا ذنبا أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة... وصدق الله القائل:{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}.

(٢) رواه الترمذى. وقال حديث حسن - وقراب الأرض أى ملؤها.

(٣) نقلا عن: كتاب إحياء علوم الدين. الجزء رقم (٤). الصفحة رقم (٤).

على رأسه قد تعلق خطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلتـــه» [١].
وفى بعض الروايات أنه أراد أن يشكر الله فقال: «اللهم لك الحمد أنت عبدى وأنـــا ربى». يريد أن يقول: (أنت ربى وأنا عبدك) ولكن من شدة فرحه قال ما قال[٢]... وهذا تصور لرضاه عن عبده التائب. من الذى طرق باب ربه تائبا بصدق فلم يقبله؟ من الذى ذرفت عيناه دمعا على ما فرط منه فلم تطفيء هذه الدموع غضب ربه عليه؟ من الذى أتى ليلا أو نهارا ماشيا فلم يأتيه مهرولا؟ من الذى تقرب إلى الله تعالى شبرا فلم يتقرب إليه ذراعا؟ من الذى تقرب إلى الله تعالى ذراعا فلم يتقرب إليه باعا؟ [٣]

وفى الحديث القدسى عن رب العزة ما معناه: «عبادى يبارزوننى بالعظـــائم وأنـــا أكلؤهم على فرشهم. إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم! أخلق ويعبـــد غـــيرى. وأرزق ويشكر سواى. خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد. أتحبب إليهم بنعمـــى وأنـــا الغنى عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصى وهم أفقر شيء إلي. من أقبل إلىّ تلقيته من بعيـــد. ومن أعرض عنى ناديته من قريب. ومن ترك لأجلى أعطيته المزيد ومن أراد إرضـــائى أردت ما يريد. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت لـــه الحديـــد. أهـــل ذكـــرى أهـــل مجالستى. وأهل شكرى أهل زيارتى. وأهل طاعتى أهل كـــرامتى وأهـــل معصـــيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم. أحب التوابين وأحب المتطهـــرين. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب. من آثرنى على ما ســـواى آثرته على ما سواه. الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كـــثيرة والسيئة عندى بواحدة فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها لـــه» [٤].

يارب: آمنت أنك الإله الحق وأنت التواب الرحيم تتوب على العصاة والمذنبين. وتنسى الملائكة الحفظة الكرام ذنوبهم، وتنسى الأرض معاصيهم. فما أعظمك ياربى وما أحلمك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[٥]...

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) هذه الرواية رواها مسلم فى صحيحه.
(٣) هذا المعنى جاءفى حديث عن رسول الله رواه الإمام مسلم فى صحيحه وهومن رواية أبى هريرة.
(٤) نقلا عن: مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٢١٦).
(٥) جاء هذا المعنى فى حديث شريف رواه الأصبهانى عن أنس أن رسول الله قال: (إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعاصيه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب).

أيها العاصى لربه: لا غنى لك عن الرجوع إلى مولاك. فلا مهرب منه إلا إليه. ولا نجاة من عذابه إلا بالإنابة إلى بابه.

يحكى عن بعض العارفين أنه حصل له إباق وشرود. فرأى فى بعض الطرق باباً قد فتح وخرج منه صبي صغير يستغيث ويبكى. ورأى خلفه أمه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب فى وجهه ودخلت!! فذهب الصبى غير بعيد ثم وقف مفكرا فلم يجد مأوى غير البيت الذى اخرج منه ولا من يأويه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً فوجد الباب مغلقا بالرتاج. فنام أمام الباب ووضع خده على عتبته. وخرجت أمه فوجدته على تلك الحال فلم تملك نفسها أن ارتمت عليه والتزمته وجعلت تقبله وتبكى وتقول: يا ولدى. أين تذهب منى؟ ومن يأويك سواى؟ ألم أقل لك لا تخالفنى ولا تحملنى بمعصية على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك؟.. [1]. فإذ كانت هذه رحمة أم بولدها فكيف رحمة الله تعالى بعبده؟

ويضرب الإمام ابن القيم مثلا يصور به فرح الله تعالى بعبده التائب: بمحبوب لك تحبه حباً شديداً. وأسره عدوك وحال بينك وبينه. وأنت تعلم أن العدو يسومه سوء العذاب وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من العدو وأتاك على غير موعد ثم عاد يترضاك ويعتذر إليك. فكيف يكون فرحك به؟

والآيات القرآنية التى جاءت تدعو إلى التوبة كثيرة فى القرآن الكريم. قال تعالى:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [2]. فالآية الكريمة ربطت بين التقوى وبينَ الفلاح... وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [3].

وفى الأحاديث النبوية حث هائل يدعو إلى التوبة ويحض عليها. فمن ذلك قوله: «التائب حبيب الرحمن» [4]...: «والتائب من الذنب كمن لا ذنب لـــه»... [5] ويقول ﷺ: «يأيها الناس توبوا إلى الله. فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من ســبعين مرة» [6].

(١) مدارج السالكين. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٢٣٦).
(٢) سورة النور. الآية رقم (٣١).
(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٨).
(٤) قال تعالى مؤكدا هذا المعنى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}.
(٥) الحديث رواه ابن ماجة والطبرانى عن عبدالله بن مسعود.
(٦) رواه البخارى عن أبى هريرة. وفى رواية للإمام مسلم: (فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة).

ولقد رافقت التوبة الإنسانية فى تاريخها الطويل من لدن آدم عليه السلام وسوف تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولكن قبيل القيامة وحين تطلع الشمس من مغربها يغلق باب التوبة. ولا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل [١]... فآدم أبو البشر تاب إلى الله هو وزوجه حواء بعد أن تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم[٢]... وهذا خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل يقولان:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٣]. وجميع الأنبياء يقولون لأممهم: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه. ولقد تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك - وهم: كعب بن مالك. وهلال بن أمية. ومرارة بن الربيع وأمر النبى ﷺ بمقاطعتهم وأمرهم بالابتعاد عن زوجاتهم. فلما تابوا وأنابوا وأقروا بذنوبهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت تاب الله عليهم. قال تعالى:{وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤]. والتوبة واجبة على الفور -{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} [٥] - ومن لم يتب بعد المعصية يعتبر مصرا عليها. والإصرار على المعصية ذنب عظيم ويقلب الصغيرة إلى كبيرة - كما قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار - وقال بعضهم: العجلة من الشيطان إلا فى خمس: إطعام الطعام إذا حضر الضيف. وتجهيز الميت إذ مات. وتزويج البكر إذا أورقت - بلغت - وقضاء الدين إذا وجب. والتوبة من الذنب إذا أذنب. قال تعالى:{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [٦]... ومن الآثام التى يقترفها العاصى بعد معصيته أنه يجاهر بها. فهذا سوء أدب وقلة دين وحياء. ودليل على موت القلب وفحش الطبع.

---

(١) جاء هذا المعنى فى حديث شريف عن رسول الله رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه). وفى حديث رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله قال: (إن الله يقبل توبةالعبد مالم يغرغر).

(٢) هذا المعنى ذكرته سورة البقرة. فى الآية رقم (٣٧).

(٣) سورة البقرة. الآية رقم (١٢٨)

(٤). سورة التوبة. الآية رقم (١١٨) - وحديث الثلاثة الذين خلفوا بطوله رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن كعب بن مالك.

(٥) سورة الأعراف. الآية رقم (١٠٢).

(٦) سورة النساء الآية رقم (١٧).

شروط قبول التوبة

التوبة فى معناها هى الرجوع عما ذمه الشرع من الأقوال والأفعال إلى ما حمده الشرع وأمر به. فإذا زلت قدم المؤمن وتورط فى المعصية فعليه أن يقلع عنها وأن يعود إلى طاعة ربه. فهى مبدأ طريق السالكين إلى الله. وأول أقدم المريدين ورأس مال الفائزين. وبعض الذنوب قد تكون بينك وبين ربك - كتقصير المسلم فى أداء الصلاة المفروضة. وصيام رمضان... وما أشبه ذلك - وبعض الذنوب قد تكون بينك وبين غيرك من الناس - كقذف المؤمن وسرقة ماله وبعضها الآخر يتعلق بحق الله وحق العبد - كعدم إخراج الزكاة لأنها حق معلوم للسائل والمحروم. فإذا كانت المعصية تتعلق بحق الله وحده فإن من شروط قبول التوبة...

الشرط الأول

الإقلاع عن الذنب وتركه كلية... فلا يعقل أن يريد الإنسان التوبة فى معصية ما وهو يمارسها ويصر عليها - وإلا كان هذا الإنسان كالمستهزئ بربه - وترك كل ما يذكره بها من بعيد أو قريب[1].

الشرط الثاني

الندم على ما اقترفه... فبعض الناس يذكر ذنوبه التى اقترفها فى معرض الفخر والمباهاة وليس فى معرض الذلة والندم - ولقد قال النبى ﷺ: «الندم توبة» [2]. والندم يكون على الذنب الصغير والكبير فلا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من تعصه بها ونار الندم تحرق الذنب وتمحوه. ونور الحسنة يمحو ظلام المعصية... يقول النبى ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب عليكم». وقال: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة. فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينيه تائبا منه فاراً حتى يدخل الجنة» - قال أنس ابن مالك: «إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق من الشعرة فى أعينكم كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» [3].

---

(١) قال الشاعر فى هذا المعنى:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ::: هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كنت حقا صادقا لأطعته ::: إن المحب لمن يحب مطيع

(٢) رواه الحاكم. وقال صحيح الإسناد - وهو من حديث عبدالله بن معقل.

(٣) رواه البخارى.

والندم يستدعى الاعتذار إلى الله تعالى. فبعض الحمقى يرتكبون الآثام و الخطايا وينسبون ذلك الى الله فيقولون: نصيب أو حظ أو قدر قدره الله على لا مفر منه. وهذا من سوء الأدب والجهل بما يجب لله تعالى. ولكن الاعتذار المقبول إنما يكون بالاعتراف بغلبة الشيطان وأنه أوقع فى حبائله. وبأن الشيطان هو الذى زين لـه هذه المعصية. وأن نفسه الأمارة بالسوء هى التى أوقعته فيها.

وعلى ذلك فالمعتذر إلى الله من معصيته ينسب ذلك إلى نفسه كما قال عز من قائل:{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [1]. وحينما يعتذر الإنسان إلى ربه وينسب الشر إلى نفسه يكون ذلك اعترافًا بالعجز وإقرارا بالربوبية. وفى الحديث: «تملقوا الله» أى انسبوا الخير إليه والشر إلى أنفسكم. ويقول أيضا: «من اعتذر إلى الله قبل عذره».

وفى بعض الآثار أن العبد إذا أذنب فقال: يا رب هذا قضاؤك وأنت حكمت علي وأنت كتبت علي. يقول الله: وأنت عملت وأنت كسبت وأنت أردت واجتهدت وأنا أعاقبك عليه... وإذا اعتذر العبد فقال: يا رب أنا ظلمت وأنا أخطأت وأنا اعتديت وأنا فعلت. يقول الله عز وجل: وأنا قدرت عليك وأنا قضيت وأنا كتبت عليك وأنا أغفر لك... وإذا عمل العبد حسنة فقال: يا رب أنا عملتها وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعت. يقول الله: وأنا أعنتك وأنا وفقتك... وإذا قال: يا رب أنت أعنتنى ووفقتنى وأنت مننت على. يقول الله: وأنت عملتها وأنت أردتها وأنت كسبتها[2]. وبالجملة فإن الاعتذار بقدر الله وقضاؤه مخاصمة لله واحتجاج من العبد على ربه. وجعل الأقدار شماعة يعلق عليها أخطاؤه وهو اعتذار أقبح من ذنب.

الشرط الثالث:

رد المظالم إلى أهلها... وذلك إذا كان الذنب يتعلق بحق من حقوق العباد. فلا بد من رد هذا الحق إذا كان موجوداً. أو الطلب من صاحب الحق أن يجعله فى حل - يقول النبى ﷺ : «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم» [3].

---

(١) سورة النساء. الآية رقم (٧٩).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٥٠٢).
(٣) الحديث رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة.

س: هل يشترط فى طلب الحل أن يذكر ما وقع منه بالتفصيل؟

ج: إن الرأى الراجح أنه لا داعى لأن يذكر ذلك بالتفصيل وإنما يكون بطريق الإجمال والتعميم. فربما كان الذنب يتصل بالعرض وذكر ذلك بالتفصيل يشيع العداوة والبغضاء. وربما تعقدت الأمور وليس ذلك من مقاصد الشريعة التى تدعو إلى الألفة والمحبة بين الناس... وعلى الذى ارتكب ذنبا من هذا القبيل أن يكثر من الدعاء والاستغفار من الدعاء لصاحب الحق [1].

علامات قبول التوبة

التوبة إذا استوفت شروطها يرجى لها القبول كرما من الله وفضلا... ومن هذه العلامات:

١- يتغير سلوك التائب فيكون بعد التوبة خيراً منه قبلها. بمعنى أن يكثر من الطاعات وان يرتاد المساجد وأن يحرص على حضور مجالس العلم. أما من تاب بلسانه واستمر على سوء صنعه فهذا دليل على أن التوبة غير مقبولة... سأل رسول الله ﷺ سيدنا الحارث فقال: «كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بحمد الله مؤمنا. قال النبى ﷺ: انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا. فاستوى عندي ذهبها ومدرها – طينها – وأظمات نهاري وأسهرت ليلى. وأصبحت كأنى أرى عرش ربى بارزا. وكأنى أرى أهل الجنة فى الجنة يتناغون فيها. وأهل النار فى النار يتضاغون فيها. فقال النبى ﷺ: عرفت فالزم – ثلاثا[2] فرسول الله ﷺ لم يقبل من الحارث قوله: أصبحت بحمد الله مؤمنا حتى بين له حقيقة هذا الإيمان».

٢- ألا يزال خائفاً من ذنبه. فبعض الناس من يظن انه ما دام قد تاب فقد أخذ صكا على الله أن ذنبه قد غفر وأخذ عهدا بالإيمان من عذاب الله. وإنما يظل خائفا حتى يجعله الله آمنا يوم القيامة... وفى الحديث القدسي: لا أجمع على عبدي أمنين ولا خوفين. فمن

---

(١) أرى والله أعلى أعلم - أن الذنب إذا كان خاصا بقذف عرض أو غيبة أو ماشابه ذلك فله بدلا من أن يوغر صدر من قذفه وأهانه فى غيبته عند الاعتذار إليه أن يذكر محاسن هذا الشخص ويكذب نفسه أمام المجلس الذى اغتاب فيه أو فى مجالس أخرى... والاعتراف بالحق فضيلة.

(٢) الحديث مذكور فى كتب السنة.

أمنني فى الدنيا أخفته فى الآخرة. ومن أخافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة[1]... ولنذكر قول أبى بكر الصديق رضي الله عنه لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة.

٣- أن يظهر ذلة ومسكنة بين يدي ربه ويسال بعزته أن يرحم ضعفه وذله. وأن يتوسل إليه بغناه سبحانه عنه. وبفقره هو إليه. ويسأله مسألة المسكين. ويبتهل إليه ابتهال الخاضع الذليل. وأنه ليس أمامه غير إلا بابه فإذا طرد عنه فبمن يلوذ...

وقد قيل...

يـــا من ألـــوذ به فيمـــا أؤملـــه ::: ومن أعـــــوذ بـــه ممـــا أحـــاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاســـره ::: ولا يهيـــضون عظما أنت كاسره

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت: «يا رسول الله إنى حبلى من الزنا فطهرنى. فأمرها أن تذهب حتى تلد. وبعد أن ولدت جاءت مرة ثانية إلى الرسول وطلبت منـــه أن يطهرها – وهى تعلم أن الحد الذى يقام عليها هو الرجم بالحجارة حتى تموت لأنها كانت قد أحصنت – فقال لها اذهبي حتى تفطميه. وذهبت وعادت بعـــد أن فطمتـــه فأخذه رسول الله ﷺ وأمر بها فرجمت. وقذفها خالد بحجر وتطاير الدم علـــى ثيابـــه فسبها. فقال النبى ﷺ مهلا يا خالد لا تسبها. لقد تابت توبة لو وزعت علـــى أهـــل المدينة لوسعتهم»[2].

انظر إلى مجيء المرأة بنفسها تطلب إقامة الحد. ولم تقل: أقم على الحد. وإنما قالت: طهرني - ثم يدعها ﷺ حتى تلد. وتجيء للمرة الثانية ويأمرها رسول الله ﷺ بأن ترضعه حتى الفطام. وتعود بعد أن فطمته طاعة مختارة ليقام عليها الحد رجما بالحجارة حتى الموت فتلقى الله نادمة تائبة... وتلك لعمري التوبة النصوح المقبولة أن شاء الله بنص حديث الرسول ﷺ.

وقصة الرجل الذى قتل تسعا وتسعين نفسا. وذهب إلى عابد ليتوب على يديه فأغلق فى وجهه باب التوبة فقتله. ثم ذهب إلى عالم فلم يرده عن باب الله تعالى المفتوح ليلاً ونهاراً أمام التائبين. ولكن نصحه أن يبعد عن هذه القرية التي عصى الله فيها إلى قرية

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.
(٢) أو كما قال رواه مسلم من حديث عمران بن حصين - وفيه أن رسول الله صلى عليها فتعجب عمر من ذلك.

أخرى. وفى الطريق أدركته منيته فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة أيهم أحق به. فبعث الله ملكا ليحكم بينهم فأمرهم أن يقيسوا المسافة التي بينه وبين بلد المعصية وبينه وبين بلد الطاعة. فإلى أى البلدين أقرب أخذته ملائكة العذاب أو ملائكة الرحمة. وفى بعض الروايات أن الله قال لبلد الطاعة اقتربى وقال لبلد المعصية تباعدي. وبذلك أخذته ملائكة الرحمة بفضل الله تعالى ورحمته [1].

وإذا كان للتوبة أثرها على الفرد بنجاته من عذاب الله ودخوله جنة عرضها السماوات والأرض. فإن للتوبة اثر على المجتمع لأنها تعيد إليه فردا شرد عنه. وبذلك تستأصل جرثومة الفساد. فالمجرم إذا علم أن الله لا يغفر له وأن المجتمع لا ينسى له جريرته فإنه يتمادى فى الجريمة. بخلاف إذا علم أن الله يقبل توبته وأن المجتمع يرحب به عضوا نافعاً. فإن ذلك أجدى على المجتمع وأنفع.

وإذا أراد الله بعبده خيرا فإنه يرضى غرماءه وخصماءه عنه يوم القيامة. فيريهم قصورا يرى ظاهرها من باطنها. وباطنها من ظاهرها. فيقولون لمن هذه القصور؟ إلى نبى أم إلى ولى أم إلى شهيد! فيقال لهم: ليست إلى نبي ولا لولى ولا لشهيد. وإنما هي لمن يعفو لأخيه. فيعفون عنه فيقال لهم: خذوا بيد أخيكم وانطلقوا به إلى الجنة [2]. اللهم ارزقنا قبل الموت توبة. وعند الموت راحة وفى الآخرة سعادة وفوزا.

* * * * *

(١) رواه الطبرانى بإسناد صحيح والبخارى ومسلم من رواية أبى سعيد الخدرى.
(٢) حديث صحيح.